

نجيب محفوظ .. يتذكر

نجيب محفوظ .. يتذكر

اعداد ..
جمال الغيطاني

دار المسيرة

الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م
بيروت

« .. أتهيب الكتابة عن شخص نجيب محفوظ ، قد أكتب عن أعماله ، ولكن الحديث عنه يلفني برهبة مع أن نجيب محفوظ هو أقرب الأدباء الكبار إلى جيلي وإلى نفسي ، كنت ألتقي به في بداية الستينات في الطريق الذي كان يسلكه من بيته في شارع النيل إلى عمله بمبنى التليفزيون ، وأذكر أنني أعطيته أول قصة نشرت لي في يوليو ١٩٦٣ بمجلة الأديب اللبنانية ، كان عنوانها « زيارة » ، وفي اليوم التالي مشينا في الصباح الباكر فوق كوبري قصر النيل ، وهو يبدي لي رأيه تفصيلا ، أذكر ملامحه وقتئذ ، كان مشيه أسرع ، وخطاه أنشط ، أما جسده فلم يكن قد ضمر بعد بسبب مرض السكر اللعين ، والشيب لم يطرق بعد فوديه . كان نجيب محفوظ ولا زال ، يقرأ كل عمل يصله من أي أديب مجهول الاسم ، يناقشه فيه إذا كان قريباً منه ، ويكتب إليه إذا كان بمنأى عنه ، انه قريب من جيلي والأجيال الأخرى ، لم يتعال على أحد ، ولم يصرح بان هذا الجيل أو ذاك لا يساوي شيئاً ، ولم يقع فيما وقع فيه آخرون لا زلنا نكن لهم بعض الاحترام على الرغم من هيافتهم في آخر العمر ، ورعونتهم ، وتفسيري لذلك بسيط ، أن نجيب لا زال يعمل ، لا زال قادراً على العطاء ، وانه قبل ذلك كله فنان كبير ، والأديب العظيم الموهبة ، الخصب ، المعطاء ، لا يشعر بالغيرة ، ولا تراوده الصغائر ، عرفت نجيب محفوظ في كازينو الأوبرا ، ثم في قهوة سفينكس ، ومقهى ريش ، وفي أوائل السبعينات دخلت جلسته المسائية كل خميس مع أصدقائه القدامى في مقهى عرابي بالعباسية ، ثم بدأنا لقاءات خاصة في الحسين ، عاد معها نجيب محفوظ الى الفيشاوي مقهاه القديم المفضل ، والجمالية عالمه الأول ، الذي لا زال يحنّ إليه ، ومرتبطاً به ، كان لقاء ، أسبوعياً ، كل يوم اثنين ، يحضره زميلي الروائي يوسف القعيد ، والكاتب المسرحي اسماعيل العادلي ، والناقد عبد الرحمن عوف ، وكانت

أياماً خصبة، عامرة بالنقاش، ثم استمرت الصلة، كما تستمر مع معظم أبناء جيلي والأجيال القادمة، وخلال اقترابي من نجيب محفوظ، كنت ألمح فيه هذه الروح الشعبية الرائعة، والمصرية جداً، ان نجيب محفوظ يثير في نفسي كل طفولتي وشبابي وأيامي في الجمالية التي عشت فيها حتى الثلاثين، وأعترف أنني تأثرت بكثير من الجوانب الشخصية فيه، خاصة ما يتعلق بالصرامة في تنظيم الوقت، هذا النظام الحديدي الذي يخضع نجيب نفسه له، لقد التقى ذلك معي في حقيقة كنت أدركها جيداً، ضيق مساحة هذا العمر، وكثرة ما يجب تحصيله، ومعايشته، ان الأدب في حاجة الى تصوف من نوع خاص، الى حزم، الى صرامة، انه ليس وسيلة سهلة الى النجومية، او نشر الأخبار في أبواب المجتمع بالصحف اليومية، أو افتعال الزوبعات، أو الظهور في البرامج التليفزيونية، او الاستضافة في البرامج الاذاعية التي تبث عقب الافطار الرمضاني، او تلبية دعوات السفر.

ان الأدب حياة متكاملة، في حاجة الى اخلاص وتفانٍ، وأذكر قولاً لصديق بدأ كاتب قصة ثم توقف نظراً لتفرغه لعمله القانوني المرهق، قال ان الأدب بقدر ما تمنحه بقدر ما يعطيك..

ونجيب محفوظ منح حياته كلها من أجل الأدب، وفي كل جزء من حديثه الطويل هذا، وفي كل ما أعرفه عنه، ما يؤكد ذلك، ما يجسده، واعترف أنني الآن أكتشف من خلال نجيب محفوظ أنني ضيعت بعض الوقت في أعمال كان يجب خلالها أن أخلص إلى الأدب، أعمال محدودة جداً، انني نادم عليها، لقد قاوم نجيب محفوظ كافة الاغراءات المادية الضخمة التي تعرض لها في حياته، من أجل الأدب، قاوم هذه الاغراءات حتى في مجال الأدب نفسه، عندما عرض عليه الأستاذ مصطفى امين ان يكتب قصتين في الشهر لقاء مبلغ يمثل ضعف مرتبه في هذا الوقت رفض نجيب محفوظ لانه كان متفرغاً للرواية، ولم يصدق الاستاذ مصطفى أمين أن كاتباً ما يرفض مثل هذا العرض، فظن أن الرفض لسبب سياسي، هو وفدية نجيب محفوظ، وكانت أخبار اليوم تعادي الوفد. إن مفتاح شخصية نجيب محفوظ، هو هذا الاخلاص المثالي للأدب، واتخاذه حياة

كاملة، وهذا يغيظ كثيرين، لسبب بسيط، انهم غير قادرين على الاخلاص للأدب مثل نجيب محفوظ، ولم يكن حصادهم مثله، البعض ينالون منه بسبب آرائه السياسية في الفترة الأخيرة، وأنا شخصياً أختلف مع الكثير منها، لكن هذا الخلاف يكون بالنسبة لي موضع نقاش، وليس موضع اتهام، ثم إنني أنبه الى نقطة هامة، وهو الفارق بين آراء نجيب العامة، وإبداعه، في إبداعه يتجلى الكاتب الذي إذا جلس الى المكتب لا يعبأ بأي شيء في الدنيا، بأي سلطة أو سلطان، ويبدو مناقضاً لبعض آرائه، وتلك نقطة أوجه إليها نظر الباحثين، والدارسين.

وهذا الكتاب محصلة أحاديث طويلة مع نجيب محفوظ، بعضها جرى منذ سنوات بعيدة، ومحصلة جلسات منتظمة استغرقت ساعات طويلة، آثرت أن أقدمها بدون أدنى تدخل مني فيا عدا الصياغة فقط، حتى أسئلتي حذفتها، وأعتقد أن أستاذي العظيم نجيب محفوظ قد تحدث معي بوضوح، وصراحة، أمد الله في عمره الحياتي، وعمره الأدبي..

جمال الغيطاني

القاهرة ١٦ يونية ١٩٨٠

— ١ —

الطفولة...

.. عندما أرحل بذاكرتي الى أقصى بدايات العمر، إلى الطفولة الأولى، أتذكر بيتنا في الجمالية شبه خال، أنجب والدي من قبلي ستة أشقاء، جاءوا كلهم متعاقبين، أربع إناث وذكرين، ثم تتوقف والدتي عن الإنجاب لمدة تسع سنوات. ثم.. أجيء أنا، عندما وصلت إلى سن الخامسة كان الفرق بيني وبين أصغر أخ لي خمس عشرة سنة، البنات كلهن تزوجوا تقريباً فيما عدا واحدة لا أذكر أي شيء عن حياتها في البيت، أما شقيقاي فقد تزوجا بالفعل، أحدهما دخل الكلية الحربية وسافر للخدمة في السودان، لهذا.. لا أتذكر في البيت إلا والدي ووالدتي، لا أذكر أن أي إنسان آخر شاركنا البيت إلا الضيوف، عمتي، ابنة عمتي، ناس من الخارج، أغلب حياتي في بيتنا كأني طفل وحيد، لكن طبعاً كنا نزور الأشقاء في بيوتهم. لهذا إذا ما حاولت استرجاع ذكرياتي عنهم، فإنني أتذكرهم في بيوتهم وليس في بيتنا، كانت علاقتي بهم علاقة الصغير بالكبار، أساسها الأدب والحشمة، لم أعرفهم كأشقاء أعيش معهم حياتهم اليومية، ألعب معهم، أضحك معهم، ولذلك كانت علاقة الأخوة من العلاقات التي أتابعها في حياتي بإهتمام، فيما بعد كان من أصدقائي أشقاء، كنت أتابعهم، أسأل نفسي، تُرى.. لو إن إخوتي قاربوني في السن، كيف ستمضي علاقتي معهم، كان من بين أصدقائي ثلاثة أشقاء، كانوا دائماً يلعبون معاً، يذهبون الى النزهة معاً، يضحكون معاً كنت أتابعهم واسأل نفسي، هل كنت سأصبح مثلهم.. كنت محروماً من الاحساس بالأخوة..

لهذا تلاحظ دائماً انني أصور في كثير من أعمالي علاقات أخوة بين أشقاء، وهذا نتيجة لحرماني من هذه العلاقة، يبدو هذا في الثلاثية، في بداية ونهاية، في خان الخليلي..

لم أجرب هذه العلاقة في الحياة الحقيقية، كنت دائماً انظر إليها كشيء محرم أو مجهول، كنت أتمنى أن يكون لدي نفس العلاقات بين أصدقائي الإخوة...

اللعب

طبعاً البيت يرتبط في ذكرياتي دائماً باللعب، خاصة السطح، فيه مجال كبير للعب، فيه خزين، بط، فراخ، كتاكيت صغيرة، زرع في أصص، لبلاب، ريحان، ثم السماء الفسيحة، كنا نسكن بيتاً مستقلاً، أو بالمعنى الدارج، بيت من بابه، ومن الممكن أن تطلق عليه «بيت رأسي» بالمعنى الحديث، كل طابق كان يحتوي على حجرة صغيرة وأخرى كبيرة، ثم أخيراً السطح.. حيث تجد غرفة صيفية، كنا ننام فيها خلال أيام الحر، كان البيت يتكامل الى أعلى، يعني في الطابق الأول غرفة الاستقبال، في الطابق الثاني غرفة الطعام، وهكذا ربما لصغر مساحة الأرض، كنا أيضاً نلعب في الشارع، مع أطفال وبنات الجيران، كان البيت يقع في مواجهة قسم الجمالية، يطل على ميدان بيت القاضي، لكننا كنا نتبع مشيخة درب قرمز.

ملحوظة:

«أزيل البيت الذي شهد مولد اديبنا الكبير، ومكانه الآن منزل حديث من ثلاثة طوابق، تحته مقهى، أما حارة درب قرمز فلا زالت كما هي، والقبو نفسه موجود، ويمتد تحت أحد المساجد الأثرية».

كانت الحارة في ذلك الوقت عالماً غريباً، حيث تتمثل فيها جميع طبقات الشعب المصري، تجد مثلا ربعاً، يسكنه ناس بسطاء، أذكر منهم عسكري بوليس، موظف صغير في «كبانية» المياه، امرأة فقيرة تسرح بفجل أو لب، وزوجها ضرير، لهم حجرة في الربع، وأمام الربع مباشرة تجد بيتاً صغيراً تسكنه إمرأة من أوائل اللواتي تلقين التعليم وتوظفن، ثم تجد بيوت أعيان كبار، مثل بيت

السكري، بيت المهيلمي، بيت السيسي، وبيوت قديمة أصحابها تجار، أو من أولئك الذين يعيشون على الوقف، كنت تجد أغنى فئات المجتمع، ثم الطبقة المتوسطة، ثم الفقراء.. أنا لا أدري ما هو شكل الحارة الآن، ولعلك أنت تعرفه لانك عشت في المنطقة حتى السبعينات، كان الجميع يختلطون في رمضان، كانت بيوت الأثرياء تفتح «المنادر» للفقراء، كان يمكن لأي شخص من أهل الحارة أن يدخل ويأكل حتى الغرباء، لقد شاهدت اندثار هذه التركيبة للحارة المصرية في الثلاثينات، العائلات الثرية هاجرت الى العباسية الغربية، أما العائلات المتوسطة، التي أنتمي إليها فقد رحلت الى العباسية الشرقية، كانت هناك تكيه أيضاً، وكان فيه ناس من العجم أو الاتراك كنا نراهم من بعيد، كان فيه معالم في المنطقة علقت بذهني، لعلّ أبرزها الفتوة، كان وجود الفتوات معترفاً به من الحكومة نفسها، كنا نستيقظ على الزفة في بيت القاضي عندما تدب فيها المشاجرات، وفي ثورة ١٩١٩ لعبوا دوراً كبيراً أنا «شفت» بعيني الفتوات وهم يكتسحون قسم الجمالية، ويحتلونه. قلت لك انه كانت فوق السطح حجرة، كان لها نافذة تطل على الميدان، منها رأيت في طفولتي كل المظاهرات التي مرت ببيت القاضي.

ملحوظة:

القبو، التكية، الفتوة، الخلاء، من معالم الحارة الثابتة عند نجيب محفوظ، وعندما يحدثنا عن الأتراك أو العجم لعلنا تتذكر تلك الأناشيد الغامضة في «الحرافيش» التي

تنبعث من خلف أسوار التكية، وإذا كان نجيب محفوظ قد رأى في طفولته المبكرة استيلاء الفتوات على قسم الجمالية والمظاهرات من خلال النافذة، فقد استعاد أديبنا بعض ما رأى في «حكايات حارتنا»، ولنصغ إلى الحكاية الثانية عشرة..

.. ماذا يحدث للدنيا؟

يجتاحها طوفان، يقلقها زلزال، تشتعل بأطرافها النيران، تتفجر بحناجرها الهتافات.

الميدان يكتظ بالآلاف، لم يقع ذلك من قبل، هديرهم يرج جدران حارتنا ويصم الآذان، إنهم يصرخون، وبقبضات أيديهم يهددون.

وأحلق فيا يجري من فوق سور السطح، وأتساءل عما يحدث للدنيا..

وتتلاطم الأحاديث مشحونة بكهرباء الوجدان، وينهمر سيل من الألفاظ الجديدة، السحرية، سعد زغلول، مالطة، السلطان، الهلال والصليب، الوطن، الموت الزؤام.

الأعلام ترفرف فوق الدكاكين، صور سعد زغلول تلصق بالجدران. إمام المسجد يظهر في شرفة المئذنة ويهتف ويخطب.

وأقول لنفسي إن ما يحدث غريب، ولكنه مثير ومسلٍّ شديد البهجة.

غير أنني أشهد مطاردة.

يتدفع أناس داخل حارتنا، يرمون بالطوب، يتحصنون بالأركان.

يقتحم الحارة الفرسان بقبعاتهم العالية وشواربهم الغليظة، تنطلق أصوات حادة مخيفة تعقبها صرخات، أنتزع من مكان المراقبة إلى الداخل فتطالعني وجوه مذعورة وهمسات تقول:

- إنه الموت..

نرهف السمع وراء النوافذ المغلقة، لا شيء إلا أصوات متضاربة، وقع أقدام، صهيل خيل، أزيز رصاص، صرخة موجعة، هتاف غاضب. يتواصل ذلك دقائق في الحارة ثم يسود الصمت.. ويتردد الهدير ولكن هذه المرة من بعيد ثم يسود صمت مطلق.

وأقول لنفسي إن ما يحدث غريب ومزعج ومخيف. وأعرف بعض الشيء معاني الألفاظ الجديدة، سعد زغلول، مالطة، السلطان، الوطن، وأعرف بوضوح أكثر الفرسان البريطانيين والرصاص والموت. وتزورنا أم عبدة في غاية من الإنفعال، تحكي حكايات عن الضحايا والأبطال، وتنمي إلينا علوة صبيّ الفران، وتؤكد أن جياد الفرسان حزنت أمام سور التكية، وألقت الفرسان عن متنها..

وأقول لنفسي إن ما يحدث حلم مثير لا يصدق..].

تنتهي الحكاية، ويواصل نجيب محفوظ التذكر..

التيه في الزمن

من الشخصيات التي لا أنساها أيضاً النساء اللواتي كن يترددن على البيت ليقمن بإعداد الأحجبة، وأعمال السحر، كنت أرقبهن عندما يجئن الى أمي، يجلسن معها، يتحدثن. من معالم طفولتي أيضاً، الكتاب. كان النظام التعليمي

وقتئذ يقضي بأن نذهب أولا إلى الكتاب، ثم نلتحق بالمرحلة الابتدائية، علمنا الشقاوة، ولكنه علمنا مبادىء الدين، ومبادىء القراءة والكتابة. كان مختلطاً للجنسين، كان مقر الكتاب في حارة الكبابجي، بالقرب من درب قرمز. لا أدري ماذا يحوي الآن؟ ربما كنت تعرفه، ذهبت إليه في الرابعة، لكن الغريب أنني في هذه السن المبكرة بدأت أرى أشياء أخرى خارج الحارة، تذكر أنني حدثتك من قبل عن غرام والدتي بالآثار، كثيراً ما ذهبنا الى الانتيكخانة، أو الاهرام، حيث أبو الهول، لا أدري سر هوايتها تلك حتى الآن؟، كنا نخرج بمفردنا، وأحياناً مع الوالد، تجرني في يدها، ونمضي إلى الانتيكخانة. خاصة حجرة المومياءات، زرناها كثيراً، كانت أمي تتمتع بحرية نسبية، وبعكس ما تبدو عليه «أمينة» في الثلاثية، التي لم يكن مسموحاً لها بالخروج إلا بإذن من أحمد عبد الجواد، تسألني، من أين إذن استوحيت شخصية أحمد عبد الجواد؟

إنني أذكر هنا أسرة كانت تسكن في مواجهتنا، كان البيت مغلقاً باستمرار، نوافذه لا تفتح أبداً، ولا يخرج منه إلا صاحبه، رجل شامي إسمه الشيخ رضوان، مهيب الطلعة، وكانت أمي تصحبني لزيارة هذه الأسرة، وكنت أرى زوجة الرجل غير المسموح بخروجها، كنا نزورها، ولكنها لا تزورنا، لانه غير مسموح لها، وكانت ترجو والدتي أن تتردد عليها، كان لي أصدقاء كثيرون من الأطفال، وفيما بعد، عندما انتقلنا إلى العباسية، وكان عمري اثنتي عشرة سنة أصبحت على صلة ببعضهم، ثم اختفوا جميعاً عني في زحام الحياة، جميع أصدقاء طفولتي فيما عدا واحد التقيت به منذ عشرين أو خمس وعشرين سنة في ميدان الجيش أثناء توجهي الى مقهى عرابي، كانت قد مضت سنوات عديدة، طويلة، ولم ير أحدنا صاحبه، لكننا تعرفنا إلى بعضنا، ثم اختفى، ولم أره بعد ذلك أبداً، وهكذا ضاع أصدقاء طفولتي في الزمن وزحام الحياة.

كانت والدتي تصحبني معها دائماً لأنني الوحيد، تصحبني في زياراتها الى الأهل، والجيران، وهكذا رأيت كثيراً من مناطق القاهرة، شبرا، العباسية، كثير من المناطق التي تقع في قلب القاهرة الآن كانت حدائق وحقولاً..

الوالد..

كان والدي يتحدث دائماً في البيت عن سعد زغلول، ومحمد فريد، ومصطفى كامل، ويتابع أخبارهم باهتمام كبير، كان إذ يذكر إسم أحد من هؤلاء فكأنما يتحدث عن مقدسات حقيقية، كان يتحدث عن أمور البيت مع أمور الوطن في وحدة واحدة، كل حدث صغير في حياتنا اليومية كان يقترن بأمر عام، فهذا الأمر وقع لأن سعد قال كذا، أو لأن السراي، أو لأن الانجليز..، كان والدي يتكلم عنهم بحماس وكأنه يتحدث عن خصوم شخصيين أو أصدقاء شخصيين، كان والدي موظفاً، وعندما وصل إلى السن الذي يستحق فيه المعاش استقال، كان موظفاً طبقاً لكادر قديم لا نعرف عنه الآن شيئاً، بعد استقالته عمل مع أحد أصحابه التجار، كان صديقه تاجراً كبيراً يسافر كثيراً إلى بورسعيد..

ملحوظة:

نلاحظ هنا أن أحمد عبد الجواد في الثلاثية سافر مرة واحدة خارج القاهرة، وكانت إلى بورسعيد بهدف تجاري، وخلال هذه الزيارة خالفت أمينة تعلياته بعدم الخروج، وأصابها ما أصابها.

كان البيت لا يوحي بأنه من الممكن أن يخرج منه أي انسان له صلة بالفن، الثقافة الوحيدة في البيت ذات طابع ديني، وصلته بالحياة العامة ذات صبغة سياسية، كان والدي صديقاً للمويلحي، وقد أهداه نسخة من كتاب «حديث عيسى بن هشام» نسخة أذكرها جيداً..

ملحوظة:

يذكرنا نجيب محفوظ هنا ببعض ملامح الأب في الثلاثية، ولكن هناك معالم أشد وضوحاً، خاصة في «حكايات حارتنا» نجد ذلك في الحكايات رقم «١٤»، و«١٥»، و«١٨»، و«١٩»، و«٢٣»، ولنستعد معاً الحكاية رقم «٢٣»..

[.. ذات صباح تدهمني اليقظة بعنف، أستيقظ مجذوباً من عالم الغيب بقبضة مبهمة، يلفني تيار من الطنين، انصت فيقف شعر رأسي من ترقب الشر، أصوات بكاء تتسلل إليّ من الصالة، تغرز أفكار السوء أسنانها في لحمي، ويتخايل لعيني شبح الموت. أثب من الفراش مندفعاً نحو الباب المغلق، أتردد لحظة ثم أفتحه بشدة لأواجه المجهول..

أرى أبي جالساً، أمي مستندة إلى الكونصول، الخادمة واقفة عند الباب، الجميع يبكون.. وتراني أمي فتقبل عليّ وهي تقول:

– افزعناك.. لا تنزعج يا بني..

أتساءل بريق جاف

– ماذا؟

فتهمس في أذني بنبرة مختنقة

– سعد زغلول.. البقية في حياتك

فأهتف من أعماقي

– سعد!

وأتراجع الى حجرتي

وتتجسد الكآبة في كل منظر..].

ما تبقى

«.. لا أذكر أبداً أياً من زملائي في الكتاب، أو في المدرسة الابتدائية التي كانت مواجهة لمسجد الحسين، التي يوجد فيها ساعة أثرية. من هذه المدرسة رأيت المظاهرات، كانت المنطقة دامية، يمكنك القول أن أكبر شيء هزّ الأمن الطفولي هو ثورة ١٩١٩، شفنا الانجليز، وسمعنا ضرب الرصاص، وشفت الجثث والجرحى في ميدان بيت القاضي، شفت الهجوم على القسم، كيف أنظر إلى طفولتي الآن؟

لقد انعكست حياتي في الطفولة في الثلاثية إلى حد ما، وفي «حكايات حارتنا» بشكل أكبر، كانت طفولة طبيعية، لم أعرف الطلاق، أو تعدد الزوجات، أو التيتم، طفولة طبيعية بمعنى أن الطفل نشأ بين والدين يعيشان حياة هادئة مستقرة، لم يكن أبي سكيراً، أو مدمناً للقمار، لم يكن شديد القسوة، مثل هذه الأمور لم يكن لها وجود في حياتي، حتى ما يكدر أخفي عني، كان المناخ الذي نشأت فيه يوحي بمحبة الوالدين، ومحبة الأسرة، وكنت أقدس الوالدين والأسرة، كان الخيط الثقافي الوحيد في الاسرة هو الدين، في سنة ١٩٣٧ توفي والدي عن خمسة وستين عاماً، كنت أعيش مع والدتي في العباسية، التي انتقلنا إليها منذ عام ١٩٢٤ تقريباً، لكن المكان الذي بقيت مشدوداً إليه، أتطلع إليه دائماً هو منطقة الجمالية..».

بين العباسية والحسين..

.. فارقت منطقة الجمالية الى العباسية وعمري إثنا عشر عاماً، وكان لانتقالنا إلى العباسية تأثير كبير على حياتي، ولم تكن العباسية التي انتقلت إليها في تلك السن المبكرة تشبه العباسية الحالية، الآن، تقوم المباني في كل مكان، والشوارع تتقاطع وتتجاور، لكن عباسية زمني القديم كانت تحوي الكثير من الخضرة، والقليل من المباني، كانت البيوت صغيرة من طابق واحد، وكل بيت تحيطه حديقة، ثم تمتد الحقول حتى الأفق، كان والدي يصحبني مع والدتي الى منطقة حدائق القبة، فيما يلي كوبري الحدائق، وهناك نركب تروللي صغير يمشي فوق قضبان، يوغل بنا في الحدائق، كان السكون عميقاً، والمنطقة كبيرة جداً لا تحوي إلا عدداً قليلاً من القصور، كل هذا راح، الحدائق اختفت، والمباني ملأت المكان، لم تكن العباسية برغم ذلك منفصلة تماماً عن الحي القديم، وجدت منطقة الحسينية، وعرابي الفتوة المشهور، نفس التقاليد، قلت إن انتقالي إلى العباسية أحدث نقلة كبيرة في حياتي، الغريب أن أصدقائي، أصدقاء العباسية، أصدقاء الصغر، استمرت علاقتي بهم حتى هذه اللحظة، باستثناء الذين انتقلوا إلى رحمة الله، حتى بعد أن فرق بيننا المكان، أحدهم الى المعادي، وآخر الى الهرم، لكننا، عندما نلتقي، حتى بعد انقطاع زمني، فكأننا نستأنف لقاء لم ينقطع إلا بالأمس فقط، كان أصدقاء العباسية مجموعة متناقضة، فيها كل نوعيات البشرية، من أسماها الى أدناها، فيهم ناس تقلدوا أكبر المناصب المهنية، أطباء ومهندسين ومحاسبين، ومنهم بلطجية، وبرمجية، ومنهم فتوات، والعلاقة بيننا كانت حميدة، حتى الشرير منهم كان يمارس شره بعيداً عنا، كانوا أكثر من

مجموعة، لكنني كنت صديقاً للكل، كلهم شخصيات لا تنسى، ولم تهن العلاقات، حتى بالبعد، وهذا غريب!

ملحوظة لا بد منها:

«.. استوحى أديبنا الكبير شخصيات عديدة من أصدقاء العباسية في رواياته، ولكنني أشير إلى عمل واحد، كتب فيه عن بعضهم بشكل مباشر، أقصد «المرايا»، راجع الفصول الخاصة بجعفر خليل، خليل زكي، رضا حمادة، حنان مصطفى، زهران حسونة، سابا رمزي، سور عبد الباقي، سيد شعير، شعراوي الفحام، صفاء الكاتب، طه عنان، عدلي بركات، عشماوي جلال، عصام الحملاوي، عيد منصور. ومنذ أواخر الستينات ترددت على أديبنا الكبير في لقائه الأسبوعي بأصدقاء العباسية في مساء كل خميس، في مقهى عرابي القديم، وهناك كان مع أصدقاء الصبي يبدو منطلقاً، على سجيته، وقد تعرفت الى معظم أصدقاء العباسية، ثم توقف هذا اللقاء والسبب، أزمة المواصلات التي عاقت أديبنا عن الانتقال من شارع النيل حيث يسكن إلى العباسية...».

شخصية غريبة

لم أنس الجمالية.

حنيني إليها ظل قوياً، دائماً كنت أشعر بالرغبة في العودة إلى الجمالية، إلى أصدقائي هناك، ما الذي يسّر لي هذا وبانتظام؟ كان لنا صديق من شلة العباسية توقف عن الدراسة وانتقل للعمل مع والده في دكان منيفاتورة بالغورية، كنا في الإجازة، في العطلة المدرسية، كانت أكثر من أربعة شهور، كان يقول لنا: لا بد أن تجيئوني يومياً، كنا عندئذ نقطع الطريق سيراً على الأقدام، بدءاً من ميدان فاروق (ميدان الجيش حالياً) ثم شارع الحسينية، ثم بوابة الفتوح، فشارع المعزّ، كان لا بد أن نمشي حتى الغورية لاستمتع بالمنطقة، وعندما نصل إليه نبقى معه حتى يغلق الدكان ثم نمضي الى مكانين كان يفضل الجلوس فيهما، مقهى زقاق المدق، ومقهى الفيشاوي. عرفت زقاق المدق بفضل صاحبنا هذا، الحقيقة كان بيني وبين المنطقة والناس هناك، والآثار، علاقة غريبة، تثير عواطف حميمة، ومشاعر غامضة، لم يكن ممكناً الراحة منها فيا بعد إلا بالكتابة عنها. أعود الى

صديقي هذا، لقد كان شخصاً مغامراً، عمل مع والده، وعندما جاءت أزمة الثلاثينات هجر أباه، اختفى، راح يلتقط رزقه من الصعيد، كان جريئاً جداً، أطلق لحيته، وقال إنه قادم من المدينة المنورة وباع التراب للناس على أنه تراب من قبر النبي، وكان يعالج الناس، وكانت له أحداث عديدة، في إحدى المرات أحدث نزيفاً لرجل أثناء خلعه لضرسه، وهرب من البلدة، كان بائعاً جيداً برغم ذلك، ثم تزوج، واستقرّ به الحال، كان بورجي تمام. الحقيقة أنه هو الذي عرفنا الطريق إلى أنحاء القاهرة، أين الآن؟ لا أدري، كان إذا جاء إلى القاهرة يجيء إليّ، يزورني، كان يفاجئني في وزارة الأوقاف، ثم وزارة الثقافة، ثم يختفي لا أدري، هل يعيش الآن أم أنه انتقل الى رحمة الله، لو أنه موجود في القاهرة لزارني بكل تأكيد، كان مغامراً، أذكر أنه بعد أن هجر والده إثر أزمة الثلاثينات، ثم ضاق به الحال، أراد أن يرجع الى والده، وسطني، ذهبت الى والده، كان جاراً لنا في نفس الشارع، استقبلني الرجل بحفاوة، وعندما ذكرت إسم ابنه، هبّ البيت كله في وجهي، حتى أمه، لانه تخلى عن العائلة في ظرف حرج، صديقي هذا لم يكن يعرف مبادىء الوفاء والتعلق بالأسرة، قل إنه بلا مبادىء، قل إنه سابق لعصره، المهم أنه كان مغامراً، شخصيته وتجاربه، فتحت لي عوالم عديدة كتبت عنها العديد من المرات، وهي موزعة في كثير من الروايات.. أما صديقي هذا، فلا أدري أين هو الآن..

نقطة انطلاقي

من أصدقاء العباسية الذين انتقلوا إلى رحمة الله، المرحوم فؤاد نويره، والمرحوم أحمد نويره، وهما من شلة العباسية، وهما أشقاء الموسيقار عبد الحليم نويره، كانت صداقتي للكبير، أحمد، أما عبد الحليم نويرة فكان يتردد علينا من حين إلى آخر، كان أصغر إخوته، رحلا في عمر مبكر، رحمهما الله..، كانت كل سهراتنا في منطقة الحسين، كنت أتردد على المنطقة بافتتان لا حدّ له، وتبلغ سهراتنا أجل لياليها في رمضان، كنا نمضي الى الحسين لتسمع الشيخ علي محمود، ونقضي الليل كله حتى الصباح، كان ذلك أثناء دراستي، ثم أثناء وظيفتي،

تعرف أنني لم أنقطع عن منطقة الحسين، حتى أوائل السبعينات، عندما كنت التقي بك هناك، لكن تقدمي في العمر، وازدياد أزمة المواصلات، تسببا في عدم ترددي بانتظام أضف إلى ذلك أن المكان نفسه تغير، الفيشاوي القديمة تهدمت، كان السهر في الفيشاوي حتى الصباح من أمتع ساعات حياتي، وكانت الليالي تجمع شخصيات عديدة إن عدم ترددي على الجمالية يحزنني جداً، أحياناً يشكو الانسان بعض جفاف في النفس، تعرف هذه اللحظات التي تمر بالمؤلفين، عندما أمر في الجمالية تَنثالُ عليّ الخيالات. أغلب رواياتي كانت تدور في عقلي كخواطر حية أثناء جلوسي في هذه المنطقة، أثناء تدخيني النرجيلة، يخيّل لي أنه لا بد من الارتباط بمكان معين، أو شيء معين، يكون نقطة انطلاق للمشاعر والأحاسيس، خذ مثلا كتابنا الذين عاشوا في الريف، مثل محمد عبد الحليم عبد الله، أو عبد الرحمن الشرقاوي، ستجد أن الريف هو حجر الزاوية في أعمالهم ومنبع أعمالهم، نعم.. لا بد للأديب من شيء ما، يشع ويلهم..

أول حب..

.. عدت الى الجمالية كموظف، عندما عملت في مكتبة الغوري، وأشرفت على مشروع القرض الحسن، كان ذلك في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات، كنتُ أعمل في مكتب الوزير، وزير الأوقاف، وحدث أن تغيرت الوزارة، طلبوا مني أن اختار مكاناً مختلفاً لأعمل فيه، اخترت مكتبة الغوري في الأزهر، دهشوا طبعاً لأن هذا مكان لا يختاره موظف لبعده والاهمال الذي يحيط به، لكنني كنت أرمي الى هدف آخر، لقد قضيت شهوراً من أمتع فترات حياتي في مكتبة الغوري، في هذه الفترة مثلا قرأت « مارسيل بروست » « البحث عن الزمن الضائع »، وكنت أتردد بانتظام على مقهى الفيشاوي في النهار، حيث المقهى العريق شبه خال، أدخّن النرجيلة، أفكر وأتأمل، كنت أمشي في الغورية أيضاً، لقد انعكست هذه المنطقة في أعمالي، حتى عندما انتقلت بعد ذلك الى معالجة موضوعات ذات طبيعة فكرية، أو رمزية، عدت أيضاً إلى عالم الحارة، ان ما يحركني حقيقة عالم الحارة، هناك البعض يقع اختيارهم على مكان

واقعي، أو خيالي، أو فترة ما من التاريخ، لكن عالمي الأثير هو الحارة، أصبحت الحارة خلفية لمعظم أعمالي، حتى أعيش في المنطقة التي أحبها، لماذا تدور الحرافيش في الحارة؟ كان من الممكن أن تجري الأحداث في منطقة أخرى، في مكان آخر له طبيعة مغايرة، إنما اختيار الحارة هنا لانه عندما تكتب عملا روائياً طويلا، فانك تحرص على اختيار البيئة التي تحبها، التي ترتاح إليها، حتى تصبح «القعدة حلوة»، أما الخلاء الذي يظهر في عالم الحارة، فاستوحيته من العباسية، أثناء سكني في العباسيه كثيراً ما كنت أخرج الى حدود الصحراء، الى منطقة عيون الماء حيث كان الاحتفال يقام عادة بالمولد النبوي، هناك كنت أجد نفسي وحيداً، خاصة أن هذا الخلاء كان على حافته المقابر، كان خلاءً لا نهائياً، في العباسية عانيت أول حب حقيقي من نوعه، من قبل كنت أحسّ بالجمال في الجمالية بقدر الاحاسيس التي تراود صبياً في الثامنة او العاشرة، لكن العباسية عرفت أول حب لي من نوعه، كانت تجربة مجردة من العلاقات، نظراً لفوارق السن، والطبقة، من هنا لم تعرف هذه العلاقة أي شكل من التواصل، وربما لو حدث ذلك لتجردت العاطفة من كثير مما اضفيته عليها، وسوف تبدو آثار هذه العلاقة في تجربة كمال عبد الجواد في الثلاثية وحبه لعايدة شداد، عرفت العباسية مرحاً، وصحبة لا تعوض، كنت ألعب الكرة مع الأصدقاء، وكنت لاعباً جيداً..

ملحوظة:

والكلام هنا للدكتور أدهم رجب، الطبيب المشهور وأحد أصدقاء العباسية، يقول:

كان نجيب محفوظ لاعب كرة من طراز نادر، في أيام صبانا في العباسية كان، محاوراً ومداوراً، ومناوراً كروياً لو استمر لنافس على الأرجح حسين حجازي والتتش. ومن بعدهما عبد الكريم صقر، وأقول الحق وأنا أشهد للتاريخ أنني لم أر في حياتي حتى الآن وأنا مدمن للكرة فأنا شاهد عدل، أقول لم أر لاعباً في سرعة نجيب محفوظ في الجري، كان أشبه بالصاروخ المنطلق، وكان هذا يلائم الكرة في عصر صبانا.. ففي شبابنا الباكر كان عقل اللاعب في قدميه، وكان اللاعب القدير هو اللاعب الفرد الذي ينطلق بالكرة كالسهم نحو الهدف لا يلوي على شيء..

المنبط المنطوي

تسألني عما إذا كنت انطوائياً؟

ربما لانك رأيتني في مرحلة مختلفة من العمر، ولكن الانطوائي نموذج مختلف تماماً، كان أحد أفراد شلتنا منطوياً، يجلس صامتاً بمفرده، وكنا نتحلق أو ندور حوله، لنستثيره، «ننكشه» لكنه لم يكن يستجيب لنا، إنما يغادرنا إلى البيت، هل أنا منطوي؟ أنا طوال عمري لم تخلُ فترة واحدة لي من أصدقاء، في العباسية كنت طوال النهار مع أصحابي، لكن في نواحٍ أخرى تجدني مثلا لا أتبادل الزيارات مع الأقارب، إنني لا أندمج إلا مع الأصدقاء الذين أبقى معهم على سجيتي، ونقعد كما أقعد معك الآن. في مقهى، في الشارع، فوق الأرض، لكن إذا جئت تقول لي إن هناك اجتماعاً، أو عرساً، أو.. لا أطيق ذلك، اي قعدة تقيدني لا أطيقها حتى الأفراح الخاصة بالأقارب، لا أحضرها..، نعم.. نعم أنا أقوم بالواجب الاجتماعي، لكن في حدود، الساعة الخامسة مثلا تجدني معهم أثناء عقد القران، ثم أنصرف، لكن زيارة رسمية أو ما شابه ذلك، لا، أصدقائي لا يزورونني لسبب، إنني معهم طوال اليوم، مع الأصدقاء كنت أصبح على طبيعتي إنني لا أطيق التكلف، لا أحتمله، لا أحب إلا الجلسة التي أصبح فيها مع أصدقائي وكأنني بمفردي، ولعلك تذكر جلساتنا في مقهى عرابي مع الأصحاب القدامى.

ملحوظة أخيرة:

المتكلم هو الدكتور أدهم رجب..

كان نجيب محفوظ، ولا يزال وفياً، ذلك النوع الأسطوري من الوفاء، الذي لا تسمع عنه إلا في القصص والروايات الخرافية..

أصدقاؤه الاعزاء هم الذين عرفهم وعرفوه في مطلع صباه في العشرينات وأوائل الثلاثينات..

وبعد ذلك فان كل من صادفهم مجرد معارف وزملاء، أعز أصدقائه كان مختار نويرة، وفؤاد نويرة رحمهما الله. وعبد الحي الألفي وكيل الوزارة بالمالية. وكاتب هذه السطور، وقريب آخر له مات. كان يكتب رواياته الأولى على الآلة الكاتبة، وقد

نسيت اسمه. لم يكن نجيب محفوظ وفياً للأشخاص فحسب، بل للمعاني والعادات أيضاً، فهناك برنامج ليوم الخميس لا يعدل عنه مهما كانت الأسباب: عند الظهر يغادر مكتبه ليتغدى مع والدته، ومع أشقائه وشقيقاته، ومنهم ناظر مدرستي السابق الاستاذ ابراهيم عبد العزيز، ويقدره نجيب محفوظ الى حد التقديس. وإذ ينتهي غداء نجيب محفوظ وأشقائه مع والدتهم ظهر الخميس، كان يذهب في الساعة السادسة الى قهوة عرابي ليقابل أصدقاءه القدامى جداً، الشخصيين، وفي الثامنة مساء يذهب إلى « الحرافيش » وهي شلة حديثة العهد، أما شلة عرابي.. فهي شلة العمر كله!

بداية التكوين
والصراع بين الأدب والفلسفة

في أحد الأيام رأيت أحد أصدقائي واسمه يحي صقر يقرأ كتاباً، رواية بوليسية عنوانها « ابن جونسون »، ويحي هذا قريب لعبد الكريم صقر لاعب الكرة المشهور، سألته:

ما هذا؟؟

قال انه كتاب ممتع جداً..

استعرته منه، قرأته واستمتعت به للغاية، كان ذلك ونحن طلبة في السنة الثالثة الابتدائية، بحثت عن روايات أخرى من نفس السلسلة، ثم تساءلت، اذا كان هذا ابن جونسون فأين جونسون نفسه؟ بحثت ووجدت سلسلة أخرى من الروايات بطلها الأب، كانت هذه أول روايات قرأتها في حياتي، كان عمري حوالي عشر سنوات، وكما قلت لك لم يكن هناك مناخ ثقافي في العائلة والكتاب الأدبي الوحيد الذي رأيته مع أبي « حديث عيسى بن هشام » لأن مؤلفه المويلحي كان صديقاً للوالد، كنت أقرأ روايات جونسون على أنها حقائق، ولهذا كنت أكاد أبكي، أو أضحك تبعاً لتغير المواقف، من رواية الى رواية، من بوليسية الى تاريخية، سارت قراءاتي، وبدأت التأليف وأنا طالب في المرحلة الابتدائية. ولكنه تأليف من نوع غريب، كنت أقرأ الرواية وأعيد كتابتها مرة أخرى، بنفس الشخصيات مع تعديلات بسيطة، ثم أكتب على غلاف الكشكول، تأليف:

نجيب محفوظ، وأختار اسماً لناشر وهمي، أعدت كتابة روايات لسير ريدر هجارد، لتشارلس جارفس، كان التأليف دائماً في الاجازات، هكذا بدأت كتابتي للرواية، طبعاً مع ملاحظة الإضافات التي أضيفها من حياتي، من علاقاتي وخناقاتي مع الأصدقاء. وبدأت بعد ذلك التنقل في القراءة، حتى وصلت الى المنفلوطي، ثم الجددين، قرأت أيضاً للمفكرين، وكان المفكرون هم الذين يحظون بالاحترام في هذه الفترة، طه حسين، العقاد، وغيرهما، أما الأدب فقد اعتبرته هواية جانبية، كان الاحترام للفكر، للمقالات، للنقد، للعرض، وليس للقصة، وهذا أثار تساؤلاتي الفلسفية، كان العقاد يثير تساؤلات حول أصل الوجود، علم الجمال، من هنا جاء توجهي الى الفلسفة، كان الجانب المحترم في الحياة الأدبية هو المقال، أما القصة فغير محترمة، ولهذا كنت لا أفكر في التفرغ للأدب، للقصة، كما أنني كنت متفوقاً في الرياضة والعلوم.

سر الوجود

كان اتجاهي معروفاً، إما الى الهندسة، أو الطب، لهذا عندما فكرت في الفلسفة انزعج والدي انزعاجاً شديداً، كذلك انزعج المدرسون، لأنني كنت ضعيفاً في المواد الأدبية، أحد أساتذتي واسمه بشارة باغوص الله يرحمه، سألني مستنكراً..

لماذا تؤذي نفسك . .اذا تفعله بنفسك؟

كان المدرسون يعرفون طلبتهم وقتئذ معرفة وثيقة، لأن الفصل لم يكن يضم إلا خمسة عشر، أو ستة عشر، كان المدرسون يراهنون على الطلبة، ويفخرون بالطالب الذي ينبغ. في البداية لم أكن أفكر إلا في الوظيفة من خلال الكرة، بمعنى أن أحصل على وظيفة تمكنني من البقاء في القاهرة لأواصل لعب كرة القدم، وبعد أن تركت الكرة بدأت أفكر في أن أصير طبيباً، أو مهندساً، لأنني قوي في الرياضة والعلوم، هذا هو السبب الوحيد، لكنني بعد أن بدأت أقرأ المقالات الفلسفية للعقاد ولاسماعيل مظهر، وغيرهما، وبدأت قراءاتي

تتعمق، تحركت في أعماقي الأسئلة الفلسفية، وجدت أن هذه هي همومي، وخيل لي أنني بدراستي للفلسفة سأجد الأجوبة الصحيحة، الا يصبح الدارس للطب طبيباً، والدارس للهندسة مهندساً؟ اذن فدراستي للفلسفة سوف تجيب على الأسئلة التي تعذبني. خيل لي أنني سأعرف سر الوجود، ومصير الانسان، يعني بعد تخرجي، سأتخرج ومعي سر الوجود «وكنت أدهش، كيف يتجاهل الناس سرّ الوجود في قسم الفلسفة ويدرسون الطب أو الهندسة، بالطبع والدي صدم، وعندما قوبل باصراري، قال لي: ادخل الحقوق مثل ابن عمك، وابن عمتك، لتتخرج قاضياً، أو مستشاراً، لكن أي مستشار، أي قاض؟ إنني أريد سرّ الوجود؟ هل أنت منتبه الى سذاجة الفكرة؟ كما تتعلم الطب، ستتعلم سرّ الوجود..

* * *

ملحوظة:

« نستعيد فيما يلي أحد فصول قصر الشوق من الثلاثية »:

– آن لك أن تخبرني عن المدرسة التي تنوي الالتحاق بها..؟ كان السيد أحمد عبد الجواد متربعاً على الكنبة بحجرة نومه، على حين جلس كمال على طرفها المواجه للباب شابكاً ذراعيه على حجرة يكتنفه الأدب والطاعة. ود السيد لو يجيبه الفتى قائلاً: « الرأي رأيك يا أبي »، بيد أنه كان مسلماً بأن اختيار المدرسة ليس من الأمور التي يدعي لنفسه فيها حقاً مطلقاً، وأن موافقة الابن عامل جوهري في الاختيار، إلا أن مدى علمه بالموضوع كله كان محدوداً جداً، وقد استمد أكثره مما يثار أحياناً في بعض مجالسه بين أصحابه من الموظفين والمحامين الذين أجمعوا على الاقرار بحق الابن في الاختيار نوع دراسته تفادياً من الاخفاق والفشل، لهذا كله لم يستنكف أن يجعل الأمر شورى مسلماً أمره الى الله.

– نويت يا بابا بإذن الله، وبعد موافقة حضرتك طبعاً! الالتحاق بمدرسة المعلمين العليا..

ندت عن رأس السيد حركة موحية بالانزعاج، واتسعت عيناه الزرقاوان الواسعتان، وهو يحدج ابنه بغرابة، ثم قال بنبرات ناطقة بالاستنكار:

- المعلمين العليا!.. مدرسة المجانية!، أليس كذلك؟

فقال كمال بعد تردد:

- ربما، لا أدري شيئاً عن هذا الموضوع..

فلوح السيد بيده مستهزئاً، كأنما أراد أن يقول له: «ينبغي أن تتجمل بالصبر قبل أن تقطع برأي فيما ليس لك به علم»، ثم قال بازدراء:

- هي كما قلت لك، ولذلك يندر أن تجذب أحداً من أولاد الناس الطيبين، ثم ان مهنة المعلم.. أتدري شيئاً عن مهنة المعلم أم أن علمك بها لا يعدو بمدرستها؟، هي مهنة تعيسة لا تحوز احترام أحد من الناس، إني عليم بما يقال عن هذه الشؤون، أما أنت فغرّ صغير لا تدري من أمور الدنيا شيئاً، هي مهنة يختلط فيها الأفندي بالمجاور، خالية من كل معاني العظمة والجلال، ولقد عرفت أناساً من الأعيان والموظفين المحترمين يأبون - الإباء كله - أن يزوجوا بناتهم من معلم مهما تكن مكانته.. ثم بعد أن تجشأ ونفخ طويلا:

- فؤاد بن جميل الحمزاوي، وهو من كنت تخلع عليه البالي من بدلاتك سيلتحق بمدرسة الحقوق، ولد ذكي متفوق ولكنه ليس أذكى منك، وقد وعدت أباه بالمعاونة في تسديد مصروفاته حتى تتحقق له المجانية، فكيف أنفق على أولاد الناس في المدارس المحترمة وابني يتعلم بالمجان في المدارس الحقيرة..؟!

كان هذا التقرير الخطير عن «المعلم ورسالته» مفاجأة مزعجة لكمال. لم هذا التحامل كله؟. لا يمكن أن يرجع ذلك الى علم المعلم الذي هو تلقين العلم، فهل يرجع الى مجانية المدرسة التي تخرجه؟. لم يكن يتصور أن يكون للغنى أو الفقر دخل في تقدير العلم أو أن يكون للعلم قيمة خارجة عن ذاته. كما يؤمن بذلك إيماناً عميقاً لا يمكن أن يتزعزع، كما يؤمن بكفالة الآراء السامية التي يطلع عليها من مؤلفات رجال يحبهم ويعتزّ بهم، مثل: المنفلوطي، والمويلحي وغيرهما. كان يعيش بكل قلبه في عالم «المثال» كما ينعكس على صفحات الكتب، فلم يتردد فيما بينه وبين نفسه عن تخطئة رأي أبيه رغم جلاله ومكانته من نفسه، معتذراً عن ذلك بجناية المجتمع المتأخر عليه، وأثر «الجهلاء» من أصحابه فيه، وهو ما أسف له كل الأسف، بيد أنه لم يسعه إلا أن يقول ملتزماً غاية ما يستطيع من الأدب والرقة وكان في الواقع يردد نصاً من مطالعاته:- العلم فوق الجاه والمال يا بابا..

ردد السيد رأسه بين كمال وبين صوان الملابس، كأنما يشهد شخصاً غير منظور على خرق الرأي الذي سمع، ثم قال باستياء:

- حقاً؟؟ عشت حتى أسمع هذا الكلام الفارغ، كأن ثمة فرقاً بين الجاه والعلم! لا علم حقيقي بلا جاه ومال. ثم مالك تتكلم عن العلم كأنه علم واحد! ألم أقل إنك غرّ صغير؟ هنالك علوم لا علم واحد، للصعاليك علومهم، وللباشوات علومهم. افهم يا جاهل قبل أن تندم!.

كان على يقين من احترام أبيه للدين ولأهله بالتالي، فقال بكر:

- ان الأزهريين يتعلمون كذلك بالمجان ويشتغلون بالتدريس، ولكن أحداً لا يستطيع أن يحتقر علومهم..

فأومأ له بذقنه باحتقار، وهو يقول:

- الدين شيء، ورجال الدين شيء آخر!

فقال مستمداً من اليأس قوة يستعين بها على مناقشة الرجل الذي لم يتعود إلاّ طاعته:

- ولكنك يا بابا تحترم علماء الدين وتحبهم!

فقال السيد بلهجة لم تخل من حدة:

- لا تخلط بين الأمور، أنا أحترم الشيخ متولي عبد الصمد وأحبه كذلك. ولكن أن أراك موظفاً محترماً أحب إليّ من أن أراك مثله، ولو سرت بالبركة بين الناس ودفعت عنهم السوء بالأحجبة والتعاويذ.. لكل زمان رجال، ولكنك لا تريد أن تفهم!

تفحص الرجل الشاب ليسبر أثر كلامه فيه، فغض كمال بصره، وعض على شفته السفلى، وجعل يرمش، ويحرك زاوية فيه اليسرى في عصبية. يا عجباً!. ألهذا الحاضر يصر أناس على ما فيه ضرر محقق لهم؟. وأوشك أن ينفجر غاضباً، ولكنه تذكر انه انما يعالج أمراً خارجاً عن نطاق سلطته المطلقة، فكظم غيظه، وسأله:

- ولكن ما الذي جعلك تتحمس لمدرسة المعلمين وحدها كأنها استأثرت بالعلم كله؟!، ما الذي لا يروقك في مدرسة الحقوق مثلاً؟ أليست هي المدرسة التي تخرج الكبراء والوزراء؟، أليست هي المدرسة التي تثقف بعلومها سعد باشا وأضرابه من الرجال.

ثم بصوت منخفض، وقد عكست عيناه نظرة واجمة:

- وهي المدرسة التي وقع اختيار المرحوم فهمي عليها بعد رويّة وتفكير، ولو لم يعاجله الأجل لكان اليوم من رجال النيابة أو القضاء. أليس كذلك؟

قال كمال بتأثر:

- جميع قولك حق يا بابا، ولكنني لا أحب دراسة القانون!

ضرب الرجل كفاً بكف، وهو يقول:

– لا عجيب!، وما دخل الحب في العلم والمدارس؟!، قل لي ماذا تحب في مدرسة المعلمين؟. أريد أن أعرف أمارات الحسن التي فتنتك فيها، أم أنت ممن يحبون الرمامة؟، تكلم ها أنا مصغ إليك..

ندت عنه حركة، كأنه يستجمع قواه لايضاح ما غمض على أبيه من الرأي ،ولكنه كان مُسلماً بصعوبة مهمته، ومقتنعا في الوقت نفسه بأنها ستجر عليه مزيدا من السخريات التي ذاق أمثلة منها فيا سلف من النقاش. وفضلا عن هذا كله، فلم يكن يستبين هدفا واضحا محددا حتى يستطيع بدوره أن يوضحه لأبيه. فما عسى أن يقول؟. في وسعه اذا تأمل قليلا أن يعرف ما لا يريد، فليس القانون ببغيته ولا الاقتصاد ولا الجغرافيا ولا التاريخ ولا اللغة الانجليزية وإن كان يقدر أهمية المادتين الأخيرتين لما يتطلع إليه، هذا ما لا يريد، فما الذي يريد؟. إن في نفسه أشواقا تحتاج الى عناية وتأمل حتى تتضح أهدافها، ولعله غير متأكد من أنه سيظفر بها في مدرسة المعلمين، وإن رجح عنده أن تكون – هذه المدرسة – أقصر سبيل إليها. أشواق تهزها مطالعات شتى لا تكاد تجمعها صفة واحدة: مقالات أدبية، واجتماعية، ودين، وملحمة عنترة، وألف ليلة، والحماسة، والمنفلوطي، ومبادىء الفلسفة. إلى أنها ربما لم تكن مقطوعة الصلة بالأحلام التي كاشفه بها ياسين قديما، بل والأساطير التي سكبتها في روحه أمه من قبل ذلك.. كان يحلو له أن يطلق على هذا العالم الغامض اسم « الفكر »، وعلى نفسه اسم « المفكر »، فيؤمن بأن حياة الفكر أسمى غاية للانسان تتعالى بطبعها النوراني على المادة والجاه والألقاب وسائر ألوان العظمة الزائفة.. هي كذلك!! وضحت معالمها أم لم تتضح، فاز بها في مدرسة المعلمين أم لم تكن هذه المدرسة إلا وسيلة إليها. لا يملك عقله أن يتحول عن هذه الغاية أبدا، ولكن من الحق كذلك أن يقر بأن ثمة صلة قوية تربطها بقلبه أو بالحري بحبه!. كيف كان ذلك؟. ليس بين « معبودته » وبين القانون أو الاقتصاد من سبب، ولكن ثمة أسباب وإن دقت وخفيت بينها وبين الدين والروح والخلق والفلسفة وما شاكل ذلك من المعارف التي يستهويه النهل من منابعها، على نحو يشبه ما بينها وبين الغناء والموسيقى من أسرار يتشوف اليها في هزة الطرب وأريحية النشوة. إنه يجد هذا كله في نفسه ويؤمن به كل الايمان، ولكن ما عسى أن يقول لأبيه؟. لجأ مرة أخرى الى المكر، وهو يقول:

– ان مدرسة المعلمين تدرس علوما جليلة، كتاريخ الانسان الحافل بالعظات، وكاللغة الانجليزية!

كان السيد يتفحصه وهو يتكلم، واذا بمشاعر الاستياء والحنق تزايله فجأة. تأمل – وكأنه يراه لأول مرة – نحافته وضخامة رأسه وكبر أنفه وطول عنقه، فوجد

في منظره غرابة تضاهي ما في آرائه من شذوذ. وأوشكت روحه الساخرة أن تضحك في باطنه، ولكن عطفه وحبه أبيا عليه ذلك، غير أنه تساءل فيا بينه وبين نفسه: النحافة ظاهرة مؤقتة، الأنف عندي مصدره، ولكن من أين له هذا الرأس العجيب؟، أليس من المحتمل أن يعرض له شخص - مثلي - ممن ينقبون عن العيوب صيداً لمزاحهم؟ ضايقته هذه الفكرة مضايقة ضاعفت من عطفه عليه، فعندما جاء صوته أهدأ نبرة وأدنى الى الحلم والنصح، قال:

- العلم في ذاته لا شيء، والعبرة بالنتيجة. القانون يفضي بك الى وظيفة القضاء، أما التاريخ والعظات فمؤداها أن تكون معلما بائسا. عند هذه النتيجة قف طويلا وتأمل (ثم ونبرات صوته تعلو قليلا في شيء من الحدة) لا حول ولا قوة إلا بالله، عظات وتاريخ وسخام، هلا حدثتني بكلام معقول؟!

تورد وجه كمال حياء وألماً وهو يستمع الى رأي أبيه في المعارف والقيم السامية التي يقدسها، وكيف استنزلها الى مستوى السخام وقرنها به، غير أنه لم يعدم عزاء فيا ورد ذهنه - في لحظته تلك - من دفاع المفكرين الذين يقرأ لهم عن الفكر وقدسيته وتعريضهم بالجاهلين الذين يزدرونه ابتغاء منفعة أو جاه. أوه! كأنهم يجادلون أشخاصا من طراز أبيه! ولكن مهلا، ليس أبوه من أولئك الحمقى، إنه شيء عظيم جليل دون شك، إلا أنه ضحية زمان ومكان ورفاق. ترى هل يجدي معه النقاش؟ هل يجرب حظه مرة أخرى مستعينا بفكر جديد؟

- الواقع يا بابا أن هذه العلوم تحوز أكبر التقدير في الأمم الراقية؟ إن الأوروبيين يقدسونها، ويقيمون التماثيل للنابغين فيها!

حول السيد وجهه عنه، ولسان حاله يقول: « اللهم طولك يا روح »، بيد أنه لم يكن غاضبا حقا، ولعله رأى الأمر كله مفاجأة مضحكة لم تخطر له ببال، ثم أعاد إليه وجهه، وهو يقول:

- بصفتي والدك! أريد أن أطمئن على مستقبلك، أريد لك وظيفة محترمة. هل يختلف اثنان في هذا؟، الذي يهمني حقا أن أراك موظفا مهابا لا مدرسا بائساً وإن أقاموا له تمثالا كابراهيم باشا أبي إصبع! يا سبحان الله، عشنا وسمعنا وشفنا العجب! مالنا نحن وأوروبا؟! أنت تعيش في هذا البلد، فهل هو يقيم التماثيل للمعلمين؟.. دلني على تمثال واحد لمعلم؟! (ثم بلهجة استنكارية) خبرني يا بني: أتريد وظيفة أم تمثالا؟!

ولما لم يجد إلا الصمت والارتباك، قال فيا يشبه الحزن:

- في رأسك أفكار لا أدري كيف اندست إليه، إني أدعوك الى أن تكون واحداً من الرجال العظماء الذين يهزون الدنيا بجلالهم ومراكزهم، فهل عندك مثال تستطيع

إليه لا أدريه؟. صارحني بما في نفسك حتى يرتاح بالي وأدرك غرضك، الحق إني في حيرة من أمرك؟!

فليتقدم خطوة جديدة يفصح بها عن بعض ما في نفسه وأمره لله. قال:

- هل من العيب يا بابا أن أتطلع الى أن أكون كالمنفلوطي يوما ما؟

قال السيد بدهشة:

- الشيخ مصطفى لطفي المنفلوطي!؟، رحمة الله عليه رأيته أكثر من مرة في سيدنا الحسين، لكنه لم يكن معلما فيما أعلم. كان أعظم من هذا بكثير، كان من جلساء سعد وكتابه، ثم إنه كان من الأزهر لا من المعلمين، ولا شأن للأزهر نفسه بعظمته. كان هبة من الله.. هكذا يقولون عنه!! نحن نبحث في مستقبلك والمدرسة التي ينبغي أن تدخلها ولندع ما لله لله، فان كنت أنت الآخر هبة من الله أيضا، فستكون في عظمة المنفلوطي وأنت وكيل نيابة أو قاض. لم لا؟!

كمال. وهو يناضل في استماتة:

- لست أتطلع الى شخص المنفلوطي فحسب ولكن الى ثقافته أيضا، ولا أجد مدرسة هي أقرب الى تحقيق غرضي، أو في الأقل الى تمهيد السبيل اليه من مدرسة المعلمين، لذلك آثرتها، ليس بي من رغبة خاصة في أن أكون معلما، بل لعلي لم أقبل هذا إلا لأنه السبيل المتاح الى ثقافة الفكر..

الفكر؟!.. وردد مقطع أغنية الحامولي «الفكر تاه اسعفيني يا دموع العين»، الذي طالما أحبه واستعاده فيما مضى من زمانه، أهذا هو الفكر الذي يسعى وراءه ابنه؟.

سأله بدهشة:

- ما هي ثقافة الفكر؟

لجّت به الحيرة، فازدرد ريقه، وقال بصوت منخفض:

- لعلي لا أعرفها، (ثم يبتسم متوددا) لو كنت أعرفها لما كان بي حاجة الى طلب تعلمها!

فسأله مستنكرا:

- اذا كنت لا تعرفها فبأي حق اخترتها؟.. هه؟.. هل تهيم بالضمة لوجه الله؟

تغلب على ارتباكه بجهد شديد، وقال مدفوعا باستماتته في الدفاع عن سعادته:

- إنها أكبر من أن يحاط بها، إنها تبحث فيما تبحث عن أصل الحياة ومآلها؟

تأمله مليا في ذهول قبل أن يقول:

- أمن أجل هذا تريد أن تضحي بمستقبلك؟، أصل الحياة ومآلها؟! أصل الحياة آدم، ومصيرنا الى الجنة أو النار. أم جد جديد في ذلك؟

- كلا. أعلم هذا. أريد أن أقول..

فعاجله قائلا:

- هل جننت؟.. أسألك عن مستقبلك، فتجيبني بأنك تريد أن تعرف أصل الحياة ومآلها؟!.. وماذا تعمل بعد ذلك؟.. تفتح دكانا لاستطلاع الغيب؟!

خاف كمال إن هو استسلم للارتباك والصمت أن يغلب على أمره أو يضطر الى التسليم بوجهة نظر أبيه، فقال مستنجدا شجاعته:

- اعذرني يا بابا اذا لم أكن أحسنت التعبير عن رأيي، أريد أن أواصل دراستي الأدبية التي بدأتها بعد الكفاءة، أن أدرس التاريخ واللغات والأخلاق والشعر. أما المستقبل فأمره بيد الله!

فهتف السيد متهكما حانقا، وكأنما يتم سرد ما سكت كمال عنه:

- وأدرس أيضاً فن الحواة، والقره جوز وفتح المندل وتبين زين نبين لم لا. اللهم غفرانك، أكنت حقا تدخر لي المفاجأة؟.. لا حول ولا قوة إلا بالله!

اقتنع السيد أحمد بأن الحال أخطر مما قدر، فحار في أمره، وجعل يسائل نفسه: «أأخطأ فيما أباح لابنه من حرية القول والرأي؟» كلما مد له في حبل الصبر والتسامح لج الآخر في العناد وتمادى في الجدل.. وما لبث أن قام في نفسه صراع بين نزعته الاستبدادية وبين تسليمه بحق «اختيار المدرسة» حرصاً على مستقبل كمال من ناحية وكراهية للانهزام من ناحية أخرى، ولكنه انتهى على غير عادته - أو بالأحرى على غير عادته في الزمن القديم - بتغليب الحكمة، فعاد الى النقاش وهو يقول:

- لا تكن غرا، ثمة شيء في عقلك لا أدريه أسأل الله لك منه النجاة، ليس المستقبل لهوا ولعبا، ولكنه حياتك التي لن تكون لك حياة غيرها، فكر في الأمر طويلا، الحقوق خير مدرسة لك، إني أفهم الدنيا خيراً منك، ولك أصدقاء من كافة الطبقات ولا خلاف بينهم في ذلك، أنت طفل أحمق، ألا تدري ما هي النيابة وما هو القضاء؟، هذه وظائف تهز الأرض هزاً وفي وسعك أن تتبوأ واحدة منها، كيف تعرض عنها بكل بساطة وتختار أن تكون.. معلما؟!

أشد ما يتألم - لا غضبا لكرامة المعلم فحسب - ولكن غضبا لكرامة العلم أولا وأخيراً، العلم الحقيقي في نظره!. لم يكن حسن الظن بالوظائف التي تهز الأرض هزا، فطالما وجد الكتاب المسيطرين على روحه يطلقون عليها العظمة الزائفة والمجد الزائل

وغير ذلك من نعوت الاستهانة والاستخفاف، فآمن - تبعا لأقوالهم - بألا عظمة حقيقية إلا في حياة العلم والحقيقة، واقترنت من ثم كل مظاهر السلطان والجاه في ذهنه بالزيف والتفاهة. غير أنه تحاشى الافصاح عن إيمانه هذا ان يستفحل غضب أبيه، وقال برقة وتودد:

- على أي حال مدرسة المعلمين مدرسة عليا؟

تفكر السيد مليا، ثم قال متبرما يائسا:

- اذا لم تكن بك رغبة في الحقوق، وبعض الناس يعشقون التعاسة، فاختر مدرسة محترمة: الحربية. البوليس. وشيء خير من لا شيء!

فقال كمال منزعجا:

- أدخل الحربية أو البوليس وقد نلت البكالوريا؟

- ما حيلتي إذا لم يكن لك في الطب نصيب؟!

عند ذلك شعر بضوء آت من ناحية المرآة أقلق عينه اليسرى، فمد بصره صوب الصوان، فرأى أشعة شمس العصر المائلة المتسربة الى الحجرة من النافذة المطلة على الفناء، وقد زحفت من الجدار المواجه للفراش حتى غشيت جانب المرآة، مؤذنة باقتراب موعد انصرافه الى الدكان، فتزحزح قليلا مبتعدا عن الضوء المنعكس، ثم نفخ نفخة وشت بضيقه وأنذرت - أو بشرت - في الوقت نفسه بوشك انتهاء الحديث، وتساءل واجما:

- ألا توجد مدرسة أخرى غير هذه المدارس المغضوب عليها؟

فقال كمال وهو يغض بصره حرجاً لعجزه عن إرضاء أبيه:

- لم يبق إلا مدرسة التجارة ولا أرب لي فيها!

ومع أن مبادرته الى الرفض أحنقته، الا انه لم يجد مع نفسه نحو المدرسة الجديدة الا الفتور، لظنه أنها إنما تخرّج « تجارا »، ولم يكن يرضى لابنه أن يكون تاجرا. لم يغب عن علمه من أول الأمر أن متجرا كمتجره - وإن هيأ له حياة صالحة - فانه أعجز من أن يهيء هذه الحياة لمن يخلفه فيه من أبنائه اذا روعي ما سيفرق من دخله على بقية المستحقين، فلم يعمل على إعداد أحد منهم ليحل محله. على أن ذلك لم يكن السبب الجوهري لفتوره، كان في الحق يكبر الوظيفة والموظفين ويدرك خطرهم ومنزلتهم في الحياة العامة كما لمس ذلك بنفسه، سواء في أصدقائه من الموظفين أو في بعض اتصالاته الحكومية المتعلقة بعمله، فأراد أبناءه أن يكونوا موظفين وأعدهم لذاك. كذلك لم يكن يخفي عليه ان التجارة لا تحظى بربع ما تحظى به الوظيفة من

التقدير في نظر الناس وإن اخلفت أضعافها من المال، وهو نفسه شارك الناس شعورهم وإن لم يعترف بذلك لسانه، بل كان يعتز بإكبار الموظفين له فيعد نفسه من الناحية «العقلية» موظفا أو ندا للموظفين. ولكن من غيره يسمه أن يكون تاجرا وندا للموظفين معا؟، ومن أين لأبنائه بشخصية مثل شخصيته؟!. آه يا لها من خيبة أمل!. كم تمنى قديما أن يرى ابنا من أبنائه طبيبا، وكم ناط بفهمي أمنيته حتى قيل له ان البكالوريا الآداب لا تؤدي الى مدرسة الطب فرضي بالحقوق واستبشر بما بعدها خيرا، ثم علق أمله بكمال فاختار قسم الآداب فعاد الرجل يحلم بما بعد الحقوق. ولكنه لم يتصور قط أن تنجلي المعركة بين آماله وبين الأقدار بوفاة «نابغة» الأسرة، وباصرار كمال على أن يكون معلما!. أي خيبة أمل.! وبدأ السيد حزينا حقا. وهو يقول:

- لقد أخلصت لك النصيحة وأنت حر فيما تختار لنفسك. ولكن ينبغي أن تذكر دائما أنني لم أوافقك على رأيك، فكر في الأمر طويلا. لا تتعجل. فما يزال أمامك فسحة من الوقت والا ندمت على سوء اختيارك مدى الحياة. أعوذ بالله من الحمق والجهل والسخف!!

وطرح الرجل رجله على الأرض آتيا حركة دلّت على شروعه في القيام ليأخذ أهبته لمغادرة البيت. فنهض كمال في أدب وحياء، وانصرف.

عاد الى الصالة فوجد أمه وياسين جالسين يتحادثان، وكان موزع النفس كاسف البال لمعارضته لأبيه ولاصراره على معارضته رغم ما أبدى الرجل من حلم ولين. ثم لما بدا عليه أخيرا من ضيق وحزن، فقص على ياسين خلاصة ما دار في الحجرة من نقاش، وأنصت إليه الشاب وعلى جبهته علامة احتجاج وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة، وسرعان ما صارحه بأنه من رأي السيد وبأنه يعجب لجهله للقيم الجليلة في هذه الحياة، وتطلعه لأخرى وهمية أو سخيفة. تريد أن تجود بحياتك للعلم؟ ما معنى هذا؟! إنه سلوك رائع كما يبدو في فصل من فصول المنفلوطي أو في نظرة من نظراته. أما في الحياة فما هو إلا عبث لا يقدم ولا يؤخر، وأنت تعيش في الحياة لا في كتب المنفلوطي.. أليس كذلك؟ الكتب تقرر أمورا غريبة وخارقة، مثال ذلك، إنك تقرأ فيها أحيانا «كاد المعلم أن يكون رسولا» ولكن هل صادفت مرة معلما يكاد أن يكون رسولا؟. تعال معي الى مدرسة النحاسين أو تذكر من تشاء من معلميك، ودلني على واحد منهم يستحق أن يكون آدميا لا رسولا!. وما هذا ات من يديك فرصة الحياة الرفيعة، كم أتحسر أحيانا على معاكسة الظروف التي حالت بيني وبين مواصلة الدراسة!.

تساءل عندما خلا الى أمه على أثر ذهاب الأب وياسين، ترى ما رأيها؟.. لم تكن ممن يؤخذ رأيهم في مثل هذا الأمر، بيد أنها تابعت أكثر حديثه مع ياسين، الى انها كانت على علم برغبة السيد في إلحاقه بمدرسة الحقوق، الأمر الذي باتت تتطير منه فلم ترتح إليه. على أن كمال كان يعرف كيف يظفر بموافقتها من أقصر سبيل، قال لها:

– ان العلم الذي أرغب في دراسته وثيق الصلة بالدين، ومن فروعه: الحكمة، والأخلاق، وتأمل صفات الله وكنه آياته ومخلوقاته!

فتطلق وجه أمينة، وقالت بحماس:

– هذا هو العلم حقا، علم أبي، علم جدك، انه أجل العلوم!

وفكرت قليلا وهو ينظر إليها من طرف خفي باسما، ثم عادت تقول بنفس الحماس:

– منذا الذي يحتقر المعلم يا ابني؟، ألم يقولوا في الأمثال «من علمني حرفا صرت له عبدا»؟

فقال مرددا حجة أبيه التي هاجم بها اختياره، وكأنما يستوهبها رأيا يؤكد به موقفه:

– ولكنهم يقولون، ان المعلم لا حق له في المناصب الرفيعة! فلوحت بيدها باستهانة قائلة:

– المعلم موفور الرزق. أليس كذلك؟، حسبك هذا، أني أسأل الله لك الصحة وطول العمر وصالح العلم، كان جدك يقول: «ان العلم أعز من المال»!

أليس عجيبا أن يكون رأي أمه خيراً من رأي أبيه؟، ولكنه ليس برأي، إنه شعور سليم، لم تفسده ممارسة الحياة الواقعة التي أفسدت رأي أبيه، ولعل جهلها بشؤون العالم هو الذي صان شعورها عن الفساد، ترى ما قيمة شعور – وإن سما – إذا كان مصدره الجهل؟ وإلا يكون لهذا الجهل نفسه أثره في تكوين آرائه؟.. ثار على هذا المنطق، وقال يحاوره: إنه عرف الدنيا خيرها وشرها في الكتب وآثر الخير عن إيمان وتفكير، وقد يلتقي الشعور الفطري الساذج بالرأي الحكيم دون أن يمري سذاجة الفطرة من أصالة الحكمة. أجل! إنه لا يشك لحظة في صدق رأيه وجلاله، ولكن هل يدري ماذا يريد؟، ليست مهنة المعلم بالتي تجذبه، إنه يحلم أن يؤلف كتاباً، هذه هي الحقيقة، أي كتاب؟، لن يكون شعرا، اذا كانت كراسة أسراره تحوي شعرا، فمرجع ذلك الى أن عايدة تحيل النثر شعرا لا الى شاعرية أصيلة فيه. فالكتاب سيكون نثرا، وسيكون مجلدا ضخما في حجم القرآن الكريم وشكله، وستحدق بصفحاته هوامش

الشرح والتفسير كذلك، ولكن عم يكتب؟، ألم يحو القرآن كل شيء؟ لا ينبغي أن ييأس، ليجدن موضوعه يوما ما، حسبه الآن أنه عرف حجم الكتاب وشكله وهوامشه، أليس كتاب يهز الأرض خيراً من وظيفة وان هزت الأرض؟! كلّ المتعلمين يعرفون سقراط، ولكن من منهم يعرف القضاة الذين حاكموه؟!

الأدب والفلسفة

... مشيت في حياتي بدون مرشد، وكان أفراد عائلتنا من أصحاب المهن، طبيب، مهندس، قاض، لم يكن أحدهم يهتم بالأدب، من كان سيدلني، ولم يكن السؤال ممكنا، الى من أتجه؟ الى العقاد مثلا؟ هنا يبدو جانب انطوائي، لقد عشت أقرأ للعقاد ولم أره، طه حسين لم ألتق به أبداً إلا عندما دعانا المرحوم يوسف السباعي لمقابلته في نادي القصة. كنت أعتقد ان الأدب نشاط سري. نشاط أسلي نفسي به، حتى استفحل الأمر كالداء، وحتى بدأ الصراع بعد حصولي على الليسانس. الصراع بين الفلسفة والأدب، وفي السنة الأخيرة لدراستي أدركت ميلي الحاد الى الأدب، أردت التخصص في الأدب الى جانب الفلسفة، ولكن المرحوم عباس محمود أخبرني أن هذا مستحيل لمخالفته النظم المعمول بها وقتئذ، أثناء إعدادي لرسالة الماجستير وقعت فريسة لصراع حاد، كل ليلة أتساءل، فلسفة أو أدب؟ كان صراعا حادا من الممكن أن تكون له عواقب خطيرة، استمر ذلك حتى سنة ١٩٣٦، حسمت الحيرة المعذبة لمصلحة الأدب، وهنا شعرت براحة عميقة، راحة لا مثيل لها، ولكن ظهرت أمامي صعوبة من نوع جديد..

الأدب

كيف تشمل ثقافتي كل ما فاتني؟

الوقت محدود، عملت موظفا، وكان أمامي الكثير، لهذا بعد تخرجي، والتحاقي بالوظيفة استمريت أعمل في البيت وكأنني لا أزال طالبا، وهذا جعل والدي مهموما بي، كان يقول لي: كأنك لم تتخرج، أراك جالسا الى المكتب ليلا ونهارا، أقول لك هل ستحصل على الدكتوراه، تقول لي، لا.. إذن لماذا ترهق

نفسك؟، كان هم والدي لأنني أعمل وقتا طويلا، كان إحساسي أن الزمن محدود، وفي نفس الوقت أريد أن أقرأ في الأدب، في العلم، في التاريخ، أريد أن أستمع الى الموسيقى، وفي نفس الوقت أكتب، أكتب بجدية، في السنوات التي سبقت ذلك كنت أكتب المقال في العديد من المجلات، كنت أيضاً أكتب القصص القصيرة، ولكنني كنت أنشر في مجلات مجهولة، أقصد القصص، يعني أجد مجلة محدودة، تعيش على الاعلانات، أبادر بارسال قصة لها، ولذلك كان من أهم أيام حياتي، يوم أن نشرت لي قصة في مجلة «الرواية»، ربما أقول إنه أهم من يوم حصولي على جائزة الدولة التقديرية، كذلك يوم نشرت في «المجلة الجديدة» لسلامة موسى، لقد نشرت عددا كبيرا من القصص، لا أذكر عدده، كما أنني لا أذكر أول قصة نشرت لي، ربما كان الدارسون المهتمون بالببلوجرافيا أقدر مني على الحصر، إن الذي اختار مجموعة «همس الجنون» هو المرحوم عبد الحميد جوده السحار، لم أكن أريد أن أنشر هذه المجموعة، كنت نشرت قبلها الروايات التاريخية الثلاث. والقاهرة الجديدة، وزقاق المدق، وجاء ليقول لي، لماذا لا تصدر مجموعة قصصية؟ قلت له: «أي مجموعة الآن.. لقد فات أوانها»، أنا لم أكتب القصة القصيرة بهدف كتابة القصة القصيرة، أنا كتبت روايات، ودرت بها على الناشرين الذين رفضوا نشرها، ولأنني كنت أريد أن أنشر فقد كتبت القصة القصيرة، نعم هذا هو الدافع الى كتابة القصة القصيرة، وهنا لاحظ شيئا هاما، وهو أنني أخذت موضوعات بعض هذه القصص من روايات. بعض الناس قالوا إن قصصي القصيرة تحولت الى روايات، لكن العكس هو الصحيح، السحار أصر على إصدار مجموعة قصصية، أعطيته عدداً هائلا من المجلات، مجلات لا أذكر عناوينها، ولكنه عندما لاحظ أنني مستاء، قال: إذن نكتب تاريخ كتابة القصص الحقيقي، متى طلب منك الزيات أن يصدر لك مجموعة قصصية، قلت: عام ١٩٣٨، قال المرحوم السحار: اذن اعتبر هذه المجموعة أول كتبك، ستكتب عليها ١٩٣٨، ولهذا قد لا يدري القارىء ان همس الجنون نشرت لأول مرة بعد ظهور زقاق المدق، وليس في عام ١٩٣٨ كما هو مكتوب في قائمة مؤلفاتي التي تجدها في كل كتاب. كنت أخشى أن يحدث نشرها صدمة كبيرة، لكن السحار

هو الذي أصر ، وهو الذي اختار ، وهو الذي طبع ، كان المرحوم السحار من شلة العباسية ، ولكنه حديث نسبيا ، وكان قد أنشأ لجنة النشر للجامعيين ونشرت لنا ، غير أن أول كتاب نشر لي لم يكن له علاقة بالأدب ، كنت طالبا بالثانوي عندما شرعت في ترجمة كتاب « مصر القديمة » لجيمس بيكي ، وذلك بهدف تقوية نفسي في اللغة ، ثم أرسلته الى المرحوم سلامة موسى لنشره كمقالات ، وفوجئت في أحد الأيام بأحد الأشخاص يطرق الباب ويسلمني نسخة من الكتاب مطبوعة ، كان سلامة موسى قد طبعه كهدية الى القراء كبديل عن شهرين تتوقف فيهما مجلة « المجلة الجديدة » التي كان يصدرها ، لم أصحح الكتاب ، ويذكرني ذلك بواقعة طريفة . فعندما تقرر طبع « عبث الأقدار » طلب مني أن أصححها ، كنت أقرأ وأشطب الكلمة وأكتب التصحيح فوقها بدلا من كتابته في الهامش كما هو متبع . ولهذا عندما نظر عمال المطبعة الى الهوامش وجدوها نظيفة ، فطبعت الرواية بأخطائها المطبعية ، عرفت في هذه السنوات سلامة موسى ، لكنني لم أرتبط بعلاقة وثيقة به . كنت أرسل له مقالات لنشرها ، وطلبني لمقابلته ، وعندما ذهبت إليه صدم . اذ وجدني تلميذا بالجامعة ، لهذا أصبح نشر المقالات أقل وأصعب ، فيما تلا ذلك اللقاء يبدو أنه كان يظنني خريجا ، أو رجلا كبيرا ، لقد نشرت العديد من المقالات ، كان معظمها مجرد تعريف بموضوعات فلسفية ، أو تلخيص لبعض ما كنا ندرسه في الجامعة ، ولهذا رفضت تماما أن أجمعها في كتاب ، لقد ألح علي صديقي الدكتور محمد يوسف نجم لاعادة نشرها في كتاب ، بالطبع مثل هذا الكتاب سيوزع جيدا ، لكن القارىء لن يجد فيه جديدا . خاصة ان كتاباً كبارا ظهروا في مجال الفلسفة فيما بعد ، وأضافوا إليه . لقد انتهت مرحلة كتابتي للمقالة الفلسفية بعد حسم الصراع بين الفلسفة والأدب بعد تخرجي من الجامعة ، وهنا أود أن أحدثك بشكل أكثر تفصيلا عن المرحلة التي تلت ذلك . .

التكوين.. والكتابات الأولى

.. بعد حسمي للصراع بين الفلسفة والأدب، وجدت نفسي في مواجهة مشكلة كبرى، كان عمري وقتئذ خمساً وعشرين سنة، وعليّ أن أضع نظاماً لدراسة الأدب، والاستمرار في الاطلاع على الجوانب المختلفة للثقافة العامة، ماذا أفعل؟ هل أبدأ من الأدب الإغريقي وأستمرّ في القراءة؟ هل أتابع العصر الحديث، وأعود من حين لآخر الى أدب العصور القديمة، كان اطلاعي على الأدب الحديث له أولوية، فبدأت منه، كنت بلا مرشد، طبعا وجدت صعوبة، ولم يكن هناك حركة ترجمة واسعة، لهذا قرأت الأعمال العالمية في اللغة الانجليزية، كان الحصول على أحدث المؤلفات الانجليزية في هذا الوقت أسهل بكثير من وقتنا هذا الآن، كنت تجد كافة ما تريده من كتب، والكتاب غير المتوفر تطلبه فيصلك بعد أسبوع على الأكثر، كنت أقوم بجولة أسبوعية على المكتبات في وسط المدينة، ولا زلت أقوم بنفس الجولة صباح يوم الجمعة، لكن الملاحظ ان الكتب المعروضة الآن فقيرة جدا في تنوعها، وحداثتها، بالنسبة للمعروض في الثلاثينات، والأربعينات، أذكر خلال الحرب الثانية أن أحد أصحاب المكتبات عرض عليّ أن يشتري مني ما جمعته من كتب بنفس الثمن الذي دفعته، لكنني رفضت، ساعدني في منهجية القراءة كتاب في تاريخ الأدب يستعرض تاريخه حتى سنة ١٩٣٠، وأذكر أن اسمه «درنك ووتر»، ساعدني هذا الكتاب في اختيار قراءاتي الأدبية، ولأنني بدأت متأخرا، لم أدرس أي أديب دراسة متكاملة، كان الكتاب يرشدني الى الأعمال المتميزة لكل كاتب، قرأت «الحرب والسلام» لتولستوي، و«الجريمة والعقاب» لدستويفسكي، قرأت

في القصة القصيرة لتشيكوف، وموباسان، في نفس الوقت قرأت لكافكا، وبروست، وجويس، أحببت شكسبير، أحببت سخريته، وفخامته، ونشأت بيني وبينه صداقةٌ حيمة وكأنه صديق، كذلك أحببت يوجين يونيل، وابسن، وسترندبرج، وعشقت «موبي ديك» لميلفيل، أعجبني «دوس باسوس»، ولم يعجبني همنجواي، كنت في دهشة من الضجة الكبيرة المحيطة به، أحببت من أعماله «العجوز والبحر»، وجدت فولكنر معقداً أكثر من اللازم، وأعجبت بجوزيف كونراد، وشولوخوف، وحافظ الشيرازي، وطاغور، وهنا تلاحظ أنني لم أتأثر بكاتب واحد، بل أسهم هؤلاء كلهم في تكويني الأدبي، وعندما كتبت لم أكن أقع تحت تأثير أحدهم، ولم تبهرني الانجازات التكتيكية الحديثة، تخيل لو أنني كنت تأثرت بجويس وحاولت أن أنهج نهجه في تيار الوعي، لقد قرأت يوليسيس في أواسط الثلاثينات.. لكنني عندما بدأت الكتابة كنت أطرح هذا كله، وأنهج منهجا واقعيا..

الواقعية..

.. كنت أكتب طبقا للمنهج الواقعي، في نفس الوقت الذي كنت أقرأ أعنف الهجوم على الواقعية، كان الأدب العالمي الحديث قد تعرض للواقع عبر مئات الأعمال، ثم انكفأ الى الداخل، الى تيارات الوعي، واللاوعي، وما وراء الواقع، لكن بالنسبة لي وللواقع الذي أعبر عنه لم يكن قد عولج معالجة واقعية بعد حتى أقدم على استخدام الأساليب الأدبية الحديثة التي كنت أقرأ عنها وقتئذ، كيف أغوص الى واقع لم يوصف في ظاهرة، ولم ترصد علاقاته، في «خان الخليلي» ناس أحياء، يعيشون ويتألمون، ويترددون على المقاهي، الغوص الى الداخل يبدو منطقيا مع بطل جويس لأنه منطوٍ ومغلق، المهم أن يدرك الكاتب الأسلوب المناسب للتعبير عن موضوعه وعن نفسه، كنت بلا مرشد، وبلا دليل، وكنت أكتب وفق منهج أقرأ السخرية منه، أقرأ نعيه، لكنني الآن أعتقد أن إدراكي كان سليما، وكان مما يزيد الأمر صعوبة أننا نفتقد التراث الروائي في الأدب العربي.

التراث

.. كنت أقرأ الكتاب المصريين المعاصرين، لكنني كنت أعرف أن القصة أو الرواية بالنسبة لهم على هامش حياتهم، «عودة الروح» أعجبتني كعمل أدبي، ولكنني وجدت أنها أقرب الى المسرح منها الى الرواية..

لا.. لم يكن هناك تراث روائي يمكن أن أرتكز عليه..

كان أصحاب الروايات نفسها لا يعترفون بها، الدكتور طه حسين يكتب رواية في الصيف، لكن من طه حسين؟ إنه المفكر. العقاد يكتب سارة، لكن من هو العقاد؟ انه المفكر، بل إن العقاد كان يحتقر القصة والرواية. اذا كان هؤلاء بأنفسهم يحتقرون الرواية، فكيف ستلتفت اليها من خلالهم.

كنت أعمل في أرض شبه خالية، وعليّ أن اكتشف بنفسي وأمهد أيضا..

من روافد قراءاتي الهامة، التراث العربي، وقد عرفته في سن مبكرة، عندما درست في المرحلة الثانوية بعض عيون التراث العربي، مثل الكامل للمبرد، والأمالي لأبي علي القالي، وكان ذلك بفضل مدرسي اللغة العربية المعممين، وظهر أثر ذلك في موضوعات الإنشاء، كان مدرس اللغة العربية اسمه الشيخ عبد الهادي، يقرأ موضوعاتي في الانشاء ويشيد بالألفاظ العربية القديمة «.. شوفوا الأسلوب، شوفوا الكلام اللي ما حدش يقدر يفهمه».. وقرأت الشعر العربي القديم، لكنني يجب أن أعترف أنني لم أقرأ التراث بانتظام..

التاريخ

بعد أن حسمت الصراع بين الأدب والفلسفة، كنت أفكر فيا يجب أن أكتبه، وفي هذا الزمن كانت الوطنية متأججة، والدعوى الى إعادة الأمجاد الفرعونية، كنت قرأت في تاريخ مصر، وكانت هناك كتب قيمة في هذا الوقت، قررت أن أكرس حياتي لكتابة تاريخ مصر بشكل روائي، واستخرجت حوالي خمسة وثلاثين أو أربعين موضوعاً، حتى ان الشيخ مصطفى عبد الرازق

قال لي « هذا يشبه ما فعله جرجي زيدان ». هذا ما كنت قد خططت له. لكن هذه الرغبة، أو هذا الدافع مات بعد رواية « كفاح طيبة »، ماتت الرغبة كما حدث فيا بعد إثر انتهائي من كتابة الثلاثية، مات التاريخ، ما الذي أحياه، ما السبب في موته؟ لا أدري، استوحيت رواية «رادوبيس» ورواية «عبث الأقدار» من أسطورتين، أما « كفاح طيبة » فكانت انعكاسا للظروف التي تمر بها مصر وقتئذ، لهذا تجد الجوانب التاريخية عندي ضعيفة، وعندما تقرر منحي جائزة عن رواية «رادوبيس» كلمني في التليفون أحمد أمين، قال لي: أريد أن أسألك سؤالا، لماذا وضعت عجلات حربية في رادوبيس؟ قلت: أعرف أن العجلات الحربية دخلت مع الهكسوس، ولكنني أردت استخدام الخيال، وأنا أعرف ما أقوم به..

لقد كان هناك مد فرعوني، وهو مد كانت له مبرراته الموضوعية، اذ أن العصر الفرعوني هو المرحلة المضيئة الوحيدة في مواجهة الواقع المر الذي كنا نعيشه، كانت كفاح طيبة ضد المحتل الانجليزي، والحاكم التركي القابع في السراي، كنت أغلي ضد الانجليز، وضد الأتراك، كنت قد درست تاريخ مصر الفرعونية دراسة كاملة، توشك أن تكون دراسة متخصص، وعزمت على كتابة هذا للتاريخ في روايات، كان من الموضوعات التي اخترتها، موضوعات عن الزعامة والتحامسة، وكان لدي موضوع مهم عن اخناتون، كنت أواظب على حضور محاضرات قسم الآثار، درست كل ما يتعلق بالعصر الفرعوني، الحياة اليومية، وسائل الحرب، الدين، كيف ألقيت بهذا المجهود الكبير بعد كفاح طيبه، وأكتب « القاهرة الجديدة »، ربما لأن التاريخ أصبح عاجزا عن أن يمكنني من قول ما أريده. ربما كنت أريد الدخول مباشرة في معالجة الموضوعات الاجتماعية، قد يكون هذا كله صحيحا، لم أعد الى التاريخ فيا بعد، بل انني اعتبرت الجهد الذي بذلته في دراسة التاريخ جهداً ضائعاً لأنني لم أرجع اليه فيا بعد، لم أستفد منه، وإن كان قد ترك أثراً في تكويني، قد لا أعيه، ولكنه حقيقي، الآن تبدو عودتي الى التاريخ صعبة، لكن من يدري، قد أعود الى التاريخ يوماً فكثيرا ما يستعصي علينا حاضرنا..

العلم

إنني شغوف بقراءة العلم.

قراءة هذه الكتب التي تلخص نظريات العلم وتبسطها للناس، بل أقول إن قراءة العلم أهم عندي أحياناً من الأدب، ان الأدب يمنح المتعة والشكل وخبرة بالحياة، لكن بالنسبة للثقافة العامة تجدها في الفلسفة والعلم، ولاحظ أن القراءة في العلم تختلف عن الايمان بالعلم، انني أؤمن بالعلم، ويرجع الفضل في ذلك الى المفكرين والكتاب الذين بشروا بالعلم، ومنهم سلامة موسى الذي نبهنا الى دور العلم في الحضارة الحديثة. ولو ان النظرة الآن الى العلم تختلف عن النظرة اليه في القرن التاسع عشر، لا شك أنه نزل عن كبريائه اذا صح القول مع أن انجازاته تعاظمت.

* * *

ملحوظة:

نستعيد هنا الفصل رقم (٣٣) من قصر الشوق:

قبل الخروج الى الصلاة الجمعة بساعة، دعا أحمد عبد الجواد كمال الى حجرته. لم يكن يدعو أحداً من أهل بيته الى مقابلته الا لأمر هام، والحق انه كان مبلبل الفكر، متحفزا لاستجواب ابنه عما يشغله. وكان بعض أصحابه قد وجهوا نظره مساء أمس الى مقال ظهر في البلاغ الاسبوعي بقلم الأديب الناشيء «كمال أحمد عبد الجواد». ومع أن احدا منهم لم يقرأ من المقال إلا العنوان وهو «أصل الانسان» والامضاء وهو الأديب الناشيء «كمال أحمد عبد الجواد» فانهم اتخذوا منه مادة للتعليق والتهنئة وممازحة السيد، حتى فكر الرجل جادا في أن يكلف الشيخ متولي عبد الصمد بعمل حجاب للشاب قال له محمد عفت «سجل اسم ابنك مع أسماء كبار الكتاب في مجلة واحدة، طب نفساً وأدع الله أن يكتب له مستقبلاً باهرا كما كتب لهم»، وقال له علي عبد الرحيم «سمعت من شخص محترم أن المرحوم المنفلوطي ابتاع عزبة بقلمه فأبشر خيراً»، وحدثه آخرون عن القلم وكيف شق السبيل لكثيرين الى حظوة الحكام والزعماء، ضاربين الأمثال بشوقي وحافظ والمنفلوطي، وعندما جاء دور ابراهيم الفار داعيه قائلا «سبحان الذي خلق من ظهر الجاهل عالما». أما السيد فقد ألقى نظرة على العنوان ونظرة على «الأديب الناشيء»، ثم وضع المجلة فوق جبته التي كان قد

نزعها بسبب حرارة يونيه وحيا الويسكي مؤجلا قراءتها حتى ينفرد بنفسه في البيت أو في الدكان ثم واصل سهرته بصدر منشرح وضمير تياه فخور، بل جعل يراجع نفسه لأول مرة في سخطه المكظوم على إيثار الشاب لمدرسة المعلمين قائلاً إن « الولد » فيما يبدو سيكون « شيئاً » رغم اختياره غير الموفق، ويتمنى أحلاما على ما قيل عن « القلم » وحظوة الكبراء وعزية المنفلوطي، أجل، من يدري؟، لعله لا يكون معلما فحسب ولكن يشق السبيل حقاً الى حياة لم تخطر له هو على بال. وعند ضحى اليوم، وبعد فراغه من الصلاة والافطار، تربع على الكنبة وفتح المجلة باهتمام وراح يقرأ بصوت مرتفع ليمتلىء بمعانيها. لكن ماذا وجد فيها؟، إنه يقرأ المقالات السياسية فيفهمها دون عناء، أما هذه المقالة فإنها دارت برأسه وأفزعت قلبه. وأعاد تلاوتها بعناية فطالع كلاماً عن عالم يدعى « داروين » وجهوده في جزر نائية، ومقارنات ثقيلة بين شتى الحيوانات حتى وقف مبهوتا عند تقرير غريب يزعم أن الانسان سلالة حيوانية!، بل انه متطور عن نوع من القردة!. وكرر تلاوة الفقرة الخطيرة منزعجا، ثم لبث ذاهلاً أمام هذه الحقيقة الاسيفة وهي أن ابناً من صلبه يقرر - دون اعتراض او مناقشة - ان الانسان سلالة حيوانية!. انزعج الرجل انزعاجا شديدا وتساءل في حيرة: هل حقا يعلمون الأولاد هذه المعلومات الخطيرة في مدارس الحكومة ثم أرسل في طلب كمال.

وجاء كمال وهو أبعد ما يكون عما يعتلج في رأس أبيه. وكان قد استدعاه قبل ذلك بأيام ليهنئه على النقل الى السنة الثالثة فظن بالدعوة الجديدة خيراً. وبدا شاحب الوجه ضامر الجسم كعهده في الفترة الأخيرة في حال عللتها الأسرة بالجهد الشديد الذي بذله قبيل الامتحان، ولكن غاب عنها سرها الحقيقي وهو ما عاناه طيلة الأشهر الخمسة الماضية من ألم وعذاب أسيراً لعاطفة مستبدة جهنمية كادت تودي به. وأشار السيد اليه بالجلوس، فجلس على طرف الكنبة متجها نحو أبيه بأدب، وعند ذاك لمح أمه جالسة أمام الصوان مشغولة بترتيب الثياب وخيطها، أما الرجل فقد رمى بالبلاغ الأسبوعي الى الفراغ الذي يفصل بينهما على الكنبة وقال بهدوء مصطنع:

- لك مقال في هذه المجلة، أليس كذلك؟

خطف غلاف المجلة عيني كمال فرنا اليه بعين ذاهلة دلت على أنه لم يكن يتوقع هذه المفاجأة قط.. من أين لأبيه هذا الاطلاع المستجد على المجلات الأدبية؟!. لقد سبق أن نشر في الصباح « تأملات » بين النثر والشعر المنثور ضمنها نظرات فلسفية بريئة وأنات عاطفية، وهو آمن كل الأمن من ناحية إطلاع أبيه عليها، فلم يدر بها أحد من أسرته الا ياسين الذي كان هو نفسه يقرأها عليه فينصت الآخر، ثم يقول له

معلقا « هذه ثمرة توجيهي الأول لك، أنا الذي علمتك الشعر والقصص، جميل يا أستاذ، ولكن هذه فلسفة عميقة جدا فمن أين جئت بها! »، أو يقول مداعبا « من الحسناء التي ألهمت هذه الشكوى الرقيقة؟، ستعلم يا أستاذ يوما أنهن لا يجدي معهن إلا ضرب المراكيب ». ولكن ها هو يطلع على أخطر ما كتب، تلك المقالة التي شب التفكير فيها ،معركة جهنمية في صدره وعقله كاد يحترق في أتونها، فكيف حدث هذا؟، وهل يجد له من تفسير الا عند أصدقاء أبيه الوفديين الذين يحرصون على اقتناء كافة الجرائد والمجلات الوفدية؟، وهل يطمع في أن يخرج سالما من هذا المأزق؟ رفع عينيه عن المجلة، ثم قال بلهجة لم يمكنها من الافصاح عن اضطرابه:

- بلى، خطر لي أن أكتب موضوعا تثبيتا لمعلوماتي وتشجيعا لنفسي على مواصلة الدرس.

قال السيد أحمد بهدوئه المصطنع:

- لا عيب في ذلك، الكتاب في الصحف كانت ولم تزل الوسيلة الى الجاه والحظوة عند الكبراء، ولكن المهم الموضوع الذي يكتب فيه الكاتب، ماذا أردت بهذه المقالة؟، اقرأها واشرحها لي، فقد غمض عليّ مرماك...

يا للتعاسة!، ليس هذا المقال للجهر، وخاصة على مسمع من أبيه!

- انه مقال طويل يا بابا، ألم تقرأه حضرتك؟، إني أشرح فيه نظرية علمية..

حدجه الرجل بنظرة براقة متحفزة. أهذا ما يدعونه بالعلم الآن!. ألا لعنه الله على العلم والعلماء..

- ماذا تقول في هذه النظرية؟، لقد لفتت نظري عبارات غريبة تقول إن الانسان سلالة حيوانية، أو شيء من هذا القبيل، أحق هذا؟

بالأمس ناضل نفسه وعقيدته وربه نضالا عنيفا أعيا روحه وجسده، واليوم عليه ان يناضل أباه، غير أنه كان في الجولة الأولى معذبا محموما.. أما في هذه الجولة فهو خائف مرتعب، ان الله قد يؤجل عقابه، أما أبوه فشيمته التعجيل بالعقاب.

- هذا ما تقرره هذه النظرة!

علا صوت السيد وهو يتساءل في انزعاج:

- وآدم أبو البشر الذي خلقه الله من طين ونفخ فيه من روحه، ماذا تقول عنه هذه النظرية العلمية؟!

طالما طرح هذا السؤال على نفسه، لم يكن دون أبيه انزعاجا، ولم يغمض له جفن ليلتها حتى الصباح، وتقلب في الفراش متسائلا عن آدم والخالق والقرآن، وقال لنفسه

مرة وعشرا: القرآن إما أن يكون حقا كله أو لا يكون قرآنا، انك تحمل عليّ ثم لأنك لم تدر بعذابي، لو لم أكن قد اعتدت العذاب وألفته لأدركني الموت تلك الليلة. قال بصوت خافت:

- داروين صاحب هذه النظرية لم يتكلم عن «سيدنا» آدم..

هتف الرجل غاضبا:

- لقد كفر داروين ووقع في حبائل الشيطان، اذا كان أصل الانسان قرداً أو اي حيوان آخر، ألم يكن آدم أبا للبشر؟. هذا هو الكفر عينه، هذا هو الاجتراء الوقح على مقام الله وجلاله!! إني أعرف أقباطا ويهودا في الصاغة وكلهم يؤمنون بآدم، كل الأديان تؤمن بآدم فمن أي ملة داروين هذا؟!، إنه كافر وكلامه كفر ونقل كلامه استهتار، خبرني أهو من أساتذتك في المدرسة؟

ما أدعى هذا الى الضحك لو كان في القلب فراغ للضحك، لكنه قلب أفعمته الآلام. ألم الحب الخائب وألم الشك وألم العقيدة المحتضرة، إن الموقف الرهيب بين الدين والعلم أحرقك، ولكن كيف يسع عاقل أن يتنكر للعلم؟. قال بصوت متواضع:

- داروين عالم انجليزي مات منذ زمن بعيد..

وهنا ندّعن الأم صوت يقول بتهدج:

- لعنة الله على الانجليز أجمعين..

فالتفتنا نحوها التفاتة قصيرة. فوجداها قد تركت الثياب والإبرة وتابعت الحديث، ولكن سرعان ما انصرفنا عنها وعاد الأب يقول:

- خبّرني، هل تدرسون هذه النظرية في المدرسة؟

التقف حبل النجاة الذي تدلى إليه فجأة، فقال لائذا بكذب:

- نعم..

أمر غريب!، وهل تدرس هذه النظرية فيما بعد لتلاميذك؟!

- كلا، سأكون مدرس آداب لا علاقة لها بالنظريات العلمية...

ضرب السيد كفا بكف. ودّ في تلك اللحظة لو كان له على العلم بعض ما له على الأسرة من سلطان. وهتف حنقاً:

- إذن لماذا يدرسونها لكم؟!، هل الغاية إدخال الكفر في قلوبكم؟

فقال كمال بلهجة المحتج:

– معاذ الله أنْ يؤثر في عقيدتنا مؤثر..

فتفحصه بارتياب وهو يقول:

– ولكنك نشرت الكفر بمقالك!

فقال بارتياب:

– استغفر الله، إني أشرح النظرية ليلم بها القارىء لا ليؤمن بها، هيهات أن يؤثر في قلب المؤمن رأي كافر..

– ألم تجد موضوعا غير هذه النظرية المجرمة لتكتب فيه؟

لماذا كتب مقالته؟. لقد تردد طويلا قبل أن يرسلها الى المجلة، ولكنه كان كأنما يود أن ينعي الى الناس عقيدته. لقد ثبتت عقيدته طوال العامين الماضيين أمام عواصف الشك التي أرسلها المعري والخيام، حتى هوت عليها قبضة العلم الحديدية فكانت القاضية. على أنني لست كافرا، لا زلت أؤمن بالله، أما الدين..؟ أين الدين؟. ذهب!، كما ذهبت رأس الحسين، وكما ذهبت عايدة، وكما ذهبت ثقتي بنفسي!. ثم قال بصوت حزين:

–لعلي أخطأت، عذري أنني كنت أدرس هذه النظرية..

– ليس هذا بعذر، وعليك أن تصلح خطأك..

يا له من رجل طيب. إنه يطمع في أن يحمله على مهاجمة العلم في سبيل الدفاع عن أسطورة. حقا لقد تعذب كثيراً ولكنه لن يقبل أن يفتح قلبه من جديد للأساطير والخرافات التي طهره منها، كفى عذابا وخداعا، لن تعبث بن الأوهام بعد اليوم، النور النور، أبونا آدم!، لا أب لي، ليكن أبي قرداً إن شاءت الحقيقة، إنه خير من آدميين لا عدد لهم، لو كنت من سلالة نبي حقا ما سخرت مني سخريتها القاتلة..

– وكيف أصلح الخطأ؟

فقال السيد ببساطة وحدة معاً:

– عندك حقيقة لا شك فيها، وهي أن الله خلق آدم من تراب، وان آدم هو أبو البشر، هكذا مذكور في القرآن، فما عليك إلا أن تبين أوجه الخطأ وهو عليك

هين، والا فما فائدة ثقافتك؟
وهنا جاء صوت الأم قائلا:
- ما أيسر أن تبين خطأ من يعارض قول الرحمن، قل لهذا الانجليزي الكافر: ان الله يقول في كتابه العزيز: إن آدم هو أبو البشر، كان جدك من حملة كتاب الله فعليك أن تنتهج سبيله، لقد سرني أنك تبغي أن تكون مثله من العلماء..
لاح الضيق في وجه السيد، فانتهرها قائلا:
- ماذا تفهمين أنت من كتاب الله أو من العلم؟، دعينا من جده وانتبهي الى ما بين يديك..
فقالت في حياء:
- أريد يا سيدي أن يكون كجده من العلماء الذين يضيئون الدنيا بنور الله..
فصاح الرجل ساخطا:
- ها هو قد بدأ ينشر الظلام..
فقالت المرأة باشفاق:
- معاذ الله يا سيدي، لعلك لم تفهمه..
حدجها السيد بنظرة قاسية. لقد خفف من شدته في معاملتهم فماذا كانت النتيجة؟. ها هو كمال يذيع أن أصل الانسان قرد، وها هي أمه تناقشه وتقول له لم تفهم! صاح بها:
- دعيني أتكلم، لا تقاطعيني، لا تتدخلي فيما لا تفهمين، انتبهي الى عملك، الله يقطعك..
ثم ملتفتا الى كمال بوجه متهجم:
- خبرني، هل أنت فاعل ما قلت لك؟
عليك رقيب في البيت لم يبتل الاحرار بمثله في الدول، لكنك كما تخافه تحبه، فلن يطاوعك قلبك على الاساءة إليه، تجرع الألم فقد اخترت حياة النضال..
- كيف يمكن أن أرد على هذه النظرية؟، لو انحصرت مناقشتي في الاستشهاد

بالقرآن لما جاءت بجديد، فالكل يعلم بما عندي ويؤمن به، أما مناقشتها علمياً فشأن المختصين من العلماء..

– ولماذا تكتب فيما لا شأن لك به..

اعتراض وجيه في ذاته، غير أنه من المؤسف انه لا يوجد الشجاعة للاعتراف لأبيه بانه آمن بالنظرية بصفتها حقيقة علمية، وانها بهذه الصفة يمكن الاعتماد عليها في انشاء فلسفة عامة للوجود خارج نطاق العلم. أما السيد فقد ظن صمته إقراراً بالخطأ فتضاعف أسفه وحنقه. إن الضلال في هذا الميدان شديد الخطورة سيء العاقبة، وهو ميدان لا سلطان له عليه، وربما وجد فيه نفسه مكتوف اليدين أمام الشاب الضال كما وجد نفسه من قبل أمام ياسين بعد انفلاته من وصايته، فهل يجري عليه ما جرى على الآباء الآخرين في هذه الأيام الغريبة؟!. ان أنباء كالأساطير تترامى اليه عن شباب «اليوم»، منهم تلاميذ قد اعتادوا التدخين، وآخرون يعبثون بكرامات المدرسين، وغير هؤلاء وأولئك قد تمردوا على آبائهم. أجل لم تهن هيبته، ولكن عم أسفر ذلك التاريخ الطويل من الحزم والصرامة؟، ها هو ياسين يتدهور ويضمحل، وها هو كمال يناقش ويجادل ويحاول التملص من قبضته.

– أصغ إليّ بكل وعيك، لا أريد أن أقسو عليك فانك مؤدب ومطيع، أما عن موضوعنا فلا أملك لك الا النصيحة، وينبغي أن تذكر أنه ما من أحد قد خالف نصيحتي وسلم..

ثم بعد صمت قصير:

– إليك ياسين شاهداً عما أقول، وقد نصحت قديما «المرحوم» بألا يلقي بنفسه الى التهلكة، ولو امتد به العمر لكان اليوم رجلا نابها.

وهنا قالت الأم بصوت كالأنين:

– قتلوه الأنجليز، إنهم إما يقتلون وإما يكفرون!

وواصل السيد حديثه قائلا:

– اذا وجدت في دروسك ما يخالف الدين، واضطررت الى حفظه كي تنجح في

الامتحان، فلا تؤمن به، ومن باب أولى لا تنشره في الصحف وإلا حملت وزره، ليكن موقفك من علم الانجليز كموقفنا من احتلالهم، وهو عدم الاقرار بشرعيته ولو فرض علينا بالقوة الجبرية...

تدخل الصوت الرقيق الحيي مرة أخرى قائلاً:

- ولتكرس حياتك بعد ذلك لفضح أكاذيب هذا العلم ونشر نور الله.

فصاح بها السيد:

- قلت ما فيه الكفاية دون حاجة الى آرائك!

فعادت الى ما بين يديها، وجعل السيد يحدق فيها متواعدا حتى اطمأن الى صمتها، فالتفت الى كمال متسائلا:

- مفهوم؟

قال كمال بلهجة موحية بالثقة:

- بكل تأكيد..

اذا أراد أن يكتب بعد اليوم فعليه بالسياسة الأسبوعية حيث لا تمتد يد أبيه الوقدي، أما عن أمه فقد وعدها في سره بأن يكرس حياته لنشر نور الله، أليس هو نور الحقيقة؟، بلى، وسيكون في تحرره من الدين أقرب الى الله مما كان في إيمانه به. فما الدين الحقيقي إلا العلم، هو مفتاح أسرار الكون وجلاله، ولو بعث الأنبياء اليوم ما اختاروا سوى العلم رسالة لهم، هكذا يستيقظ من حلم الأساطير ليواجه الحقيقة المجردة، مخلفا وراءه تلك العاصفة - التي صارع فيها الجهل حتى صرعه- حداً فاصلاً بين ماض خرافي وغد نوراني، بذلك تتفتح له السبل المؤدية الى الله، سبل العلم والخير والجمال، وبذلك يودع الماضي بأحلامه الخادعة وآماله الكاذبة وآلامه البالغة..

عادات القراءة

★ إنني أقرأ في العلم الى جانب الأدب والفن، لهذا تجدني أقرأ أكثر من كتاب في وقت واحد، لدى نهم حاد الى القراءة لم يحد منه الا مرض السكر الذي حد من نشاطي في العام الأخير عندما اضطررت نتيجة لأوامر الاطباء الى العلم ساعة والراحة ساعة، ولأنني بدأت دراسة الأدب في سن متأخرة، لهذا لم أعاود قراءة عمل أدبي مرتين، كانت الرقعة واسعة جدا، ونهمي الى الجديد لا يسمح بقراءة عمل مرتين. والا .. كان فيه أعمال عزيزة جداً على نفسي كان

يجب أن أقرأها مرتين، مثل «الحرب والسلام» لتولستوي، و«البحث عن الزمن الضائع»، ولو أنه بتقدم العمر فترت الرغبة في الاطلاع على الأدب، اليوم اذا كان أمامي كتاب فكري يبحث عن الحضارة او العلم يصبح أكثر جاذبية لي من رواية أو مسرحية، ربما لأن النصف الثاني من القرن العشرين لم يشهد شوامخ أدبية تناطح القمم الأدبية. بخلاف زمان، يعني عندما تقرأ مثلاً الجبل السحري لتوماس مان، تجد متعة فنية وفكرية، لا يوجد مستوى كهذا الآن، في هذه السنة قرأت رواية «مائة سنة من العزلة» لجارسيا ماركيز، لولا أنك أعرتها لي وذكيتها لي لما كنت قرأتها، يعني لو وجدتها في مكتبة مدبولي ربما كنت لن أشتريها، إن الجديد القادم من أوروبا لا يشجع، ولاحظ ان ماركيز من كولمبيا أمريكا اللاتينية. إنني أتابع انتاج الشبان بدقة، هذا صحيح، ولكن هذا أمر مختلف، هنا إحساس بالواجب والرغبة في معرفة تطور أدبنا، لهذا تجدني أقرأ ما يصلني لأعرف كيف يكتب الشبان، أعرف أن هناك رؤية جديدة، تطور جديد، ما يصلني من أدب عربي معاصر أقرأه أيضا، في الماضي كان الإبداع العربي خارج مصر محدوداً جدا وكان في أغلبه أدباً فكرياً، قرأت معظم ما أتيح لي الاطلاع عليه، تصور أن ذلك كان أسهل في الثلاثينات، كنت تجد في المكتبة التجارية كتباً لمؤلفين عراقيين، أو سوريين، أو مغاربة، الآن.. لا، ليس لدينا سوق مشتركة للكتب وهذا مؤسف، معظم اطلاعي على أدب البلاد العربية كان بواسطة أصدقاء، كأن يجيء صديق مسافر ويعطيني كتاباً، أو مؤلف يرسل لي كتابه، لكن السوق شحيح..

العقلانيه..

.. لا شك ان قراءتي للفلسفة كان لها تأثير كبير فيا بعد، أشعر هذا بشكل شخصي، بعض النقاد يقولون ان الرؤية الفكرية واضحة في أعمالي، فيها عقلانية، طبعا تعرف أن الأدب الأوروبي في القرن العشرين غلب عليه الطابع الفكري، لم نصل نحن الى ذلك في تقديري حتى الآن، إنما لا يخلو أدبنا من فكر، ولكن لا يقارن بأدب سارتر، أو كامي، كان الأدب في القرن التاسع عشر

يعكس الواقع بشكل فني، الحياة بكل دوافعها، عواطفها وانفعالاتها، كذلك المتعة في القص، والحكاية، تغير ذلك في القرن العشرين هناك روايات تبدو وكأنها كتب فكرية، غلب الطابع الفكري على الخلق..

العبث

لا .. بالتأكيد، أنا لست عبثيا..   هل تعرف ماذا يعني العبث؟.

إنه يعني باختصار، أن الحياة لا معنى لها، والحياة بالنسبة لي لها معنى وهدف.. إن تجربتي الأدبية كلها مقاومة للعبث، ربما كنت أشعر بدبيب عبث، لكنني أقاومه، أعقلنه، أحاول تفسيره، ثم إخضاعه، بعض أبطال الحرافيش يبدون وكأن حياتهم ضاعت عبثا، لكن في إطار العائلة الكبيرة لم تكن عبثا.

لا يا عزيزي جمال.. أنا لست عبثيا، إن أكمل شكل للعبث تجده عند بيكيت، تلك هي النظرة العبثية الحقيقية، إنها فقدان الايمان بأي شيء، ليس الايمان بالدين فقط، ولكن أي إيمان من أي نوع، أحيانا يزحف الشعور بالعبث خاصة في لحظات اليأس والضيق، الحياة من حولنا تبدو قاسية، حياتنا الشخصية في واقعنا المحلي، تبدو أحيانا عبثية، بالضبط..عبث اجتماعي كما تقول، لا معقول واقعي، لا يضيع العبث الا الانتصار من نوع معين يردّ الثقة الى النفس، إننا نعيش حتى الآن احباطات داخلية مستمرة منذ أن وعينا، مجرد أن نتنفس نجد من يجثم على أنفاسنا ليكتمها ويفسد حياتنا. وهذا فظيع، لذلك لن تجد نغمة الانتصار الأولى التي كانت في جيل ثورة ١٩١٩، نفس هذا الجيل وصلت اليه الاحباطات، لكنه تذوق الانتصار، بدأنا نعي وهذا الجيل يتحطم، نعم.. يتحطم، أنا بدأت أقرأ الصحف في سنة ١٩٢٦، كان عمري أربع عشرة سنة، كانت الثورة قد هدأت، وبدأت التنازلات، ثم الاحباطات، ثم القمع، واستمر ذلك، أتيح لنا التنفس بعد ١٩٥٢، ولكن سرعان ما انتكس الوضع، وهكذا، على أية حال أعترف لك بأنني سقطت في العبث لدقائق بعد هزيمة يونيو، صحيح أن المقاومة بدأت، لكن كان الواقع يبدو عبثيا، فظيعا..

اللغة

لم يكن نهمي الى القراءة فقط، ولكنني كنت أحب اقتناء الكتب أيضا، فيا عدا كتب التاريخ النادرة التي كانت في دار الكتب، أو مكتبة الجامعة التي كانت أغنى من دار الكتب. قرأت معظم الأعمال العالمية في اللغة الانجليزية، وقرأت بالفرنسية أيضا، ولكن بالانجليزية أكثر، لم يكن ممكنا بالنسبة لي قراءة بروست في الفرنسية، قرأته بالانجليزية، لكنني قرأت أناتول فرانس في الفرنسية، أصعب شيء قراءة عمل أدبي في لغته الأصلية لأن الأسلوب الأدبي منمق، وأحياناً يكون صعبا، قراءة كتاب علمي أسهل، لأن الأسلوب واضح.

المكتبة

.. مكتبتي الآن موزعة الى قسمين..

البيت القديم في العباسية، حيث يقيم ابن شقيقتي المهندس محمود الكردي، وبيتي في شارع النيل، السبب ضيق المكان، بعد زواجي نقلت الى البيت الكتب الأساسية، ولأن المكان ضيق، والشراء مستمر، أصبحت أمتلك خزانة كتب وليست مكتبة، تصور أنني عندما أريد الرجوع الى كتاب معين في مكتبتي لا أبحث عنه، الأسهل بالنسبة لي أن أشتريه من جديد، أصبح البحث صعبا لتكدس الكتب، لدي عدد هائل من الروايات، والكتب العلمية، وفي مختلف المجالات، ومجموعة نادرة من كتب الفن، منها مثلا مؤلفات هربرت ريد، في كل كتاب خمسون أو ستون لوحة، لا تقدر بثمن الآن..

نعم.. نعم، كنت من الذين اشتروا نسخة من دائرة المعارف البريطانية عندما استوردتها دار المعارف لأول مرة، اقتنيتها لأنها مرجع في أي مجال قد احتاج اليه، وأحيانا، بعد تعذر وصول الكتب الأجنبية الجديدة أقرأ في دائرة المعارف. خاصة عندما افتقد شيئاً جيدا..

كنت في حالة قراءة مستمرة، ثلاث ساعات يوميا، أقرأ بعد أن أكتب لأنني لو فعلت العكس لما استطعت النوم.

كان نهمي الى القراءة كبيرا..

لكن جاء الحد من ساعات القراءة في العام الماضي كخبطة موجعة لي..

إنني حقا حزين، لكنني.. أحمد الله على أية حال، فلا زلت قادرا على القراءة وان كان الوقت أقل..

* * *

الخروج من الظل.. الى دائرة الضوء..

... عدد كبير من القصص نشرته في أوائل الثلاثينات ، معظمه لم تضمه مجموعة ، كما أنني نسيت تماما المجلات التي كنت أرسل إليها قصصي ، في هذا الزمن كان عدد المجلات الجادة في مصر أكثر من مجلات التسلية ، بل إن الأخيرة كانت نادرة ، كان عدد المجلات الجادة كبيراً ، تقدم التراث العالمي في الأدب ، والتراث الحديث ، لم يكن هناك أي مشكلة في تتبع مصادر الثقافة ، أما المجلات العامة ، مثل المصور ، آخر ساعة ، اللطائف المصورة ، فمحدودة العدد والانتشار ، ولم تتوسع هذه المجلات الا بعد الحرب العظمى ، كان عدد المتعلمين في مصر محدودا ، لكن من يقرأ يشكلون نسبة عالية ، لو استمرت هذه النسبة مع ازدياد عدد المتعلمين ، لو ظلت كما هي ، لأصبح لك مثلا مائتي ألف قارىء ، نعم.. مائتي ألف قارىء ، لك أنت بالذات ، كان لكل جريدة صفحة أدبية يومية ، ولكل جريدة عدد أسبوعي مستقل ، مثل البلاغ الأسبوعي ، والسياسة الأسبوعية ، بخلاف المجلة الجديدة والمقتطف ، والحديث..

أول جنيه!

لم تربطني أي علاقة بأصحاب المجلات التي نشرت لي ، كنت أرسل قصصي أو مقالاتي بالبريد ، الوحيد الذي استدعاني سلامة موسى ، كانت الكتابة بلا مقابل ، ويبدو انه عندما لاحظ أنني كتبت عنده لفترة طويلة أراد أن يكافئني معنوياً ، ربما كان ذلك هو الدافع لاستدعائي..

استمريت أنشر بلا مقابل ، أول قصة تقاضيت عنها أجراً تقاضيته بعد أزمة تسببت فيها ، كنت أنشر في « الرواية » و« الرسالة » مجانا ، المرحوم صلاح ذهني

طلب مني قصة لمجلة « الثقافة »، أعطيته قصة ونُشرت بالفعل، آخر السنة اتصل بي تليفونيا، قال لي: يا أخي أنت سببت لنا مشكلة، قلت: خيرا.. لماذا؟ قال: لك جنيه مكافأة لم تصرفه، دهشت، سألته: ولكن.. لماذا تعطونني هذا الجنيه؟، قال: انه مكافأة عن قصة، تزايدت دهشتي، سألت: « هي القصص بفلوس؟ ».

عرفت أنهم أثناء مناقشة الميزانية العمومية في نهاية السنة وجدوا هذا الجنيه الذي حال دون تقفيل الميزانية.

الكتاب الشعبي..

في سنة ١٩٤٣، بدأنا النشر في لجنة النشر للجامعيين التي أسسها المرحوم عبد الحميد جودة السحار، وشقيقه سعيد السحار أطال الله في عمره، كان الكتاب يطبع منه ألفا نسخة فقط، حتى أصدرت روز اليوسف سلسلة الكتاب الذهبي، طبعة شعبية، طلبوني، ذهبت الى سعيد السحار أخبره، لأنني كنت أخلاقيا ملتزما بطباعة كتبي عنده، وافق بشيء من الضيق، قال: انظر الى كتبكم، طبعنا من كل كتاب ألفي نسخة فقط، بعض الكتب مضى عليها عشر سنوات، ولكن لا زال متبقيا منها في المخزن ما بين أربعمائة أو خمسمائة نسخة، فما بالك بكتاب سيطبع منه خمسة عشر ألفا، بالطبع لن تصدر طبعة ثانية منه أبدا.. المهم أننا اتفقنا، وسلمت روز اليوسف رواية « خان الخليلي »، وفوجئت بوضع جديد، لأول مرة يعلن عن كتاب لي، إعلانات متوالية، صورة كاريكاتورية للمؤلف وهو يقدم كتابه، شكل جديد من النشر، واذا بالخمسة عشر ألف نسخة ينفذون في [illegible]بوع، ليس ذلك فقط، ولكن المخزون من الكتب في مخزن سعيد السحار ينفذ، ثم يعاد طبع الروايات، وتباع، طبعة ثانية، ثالثة، رابعة، الكتاب الشعبي لم يقتل الطبعات الأخرى بل أحياها، كيف تفسر ذلك؟ لا أدري. كان تفسيري أن عدد القراء كبير، وأن الطبعة الشعبية وصلت إليهم، وصلت الى قراء كنا نجهل الطريق اليهم. كانت لجنة النشر للجامعيين تعلن بشكل محدود جدا، مجرد اعلان صغير، لكن روز اليوسف قامت بحملة اعلانية كبيرة، وهذا وضع مستمر حتى الآن، فرق كبير أن تطبع كتاباً في دار نشر،

وأن تطبعه في سلسلة شعبية، اذا كان السحار له الفضل في طباعة كتبي: فإنني مدين بالانتشار الى الكتاب الذهبي..

انهيار..
بسبب الثلاثية..

سببت لي الثلاثية صدمة حادة، عانيت منها كثيرا..

بعد أن كتبت عبث الأقدار، وبداية ونهاية، وخان الخليلي، والسراب، ورواياتي الأولى، وبعد أن انتهيت من الثلاثية، ذهبت بها الى سعيد السحار، كانت الثلاثية رواية واحدة عنوانها «بين القصرين»، أما التقسيم الى ثلاثة أجزاء فله قصة أخرى سأرويها لك بعد قليل، نظر سعيد السحار الى الرواية، وتساءل، ما هذا؟ قلت: رواية جديدة.. «بين القصرين»، أمسك بالرواية، قلب صفحاتها الألف، قال.. كيف أطبع هذه؟ ان ذلك مستحيل..

عدت الى البيت وأنا في منتهى الحزن. شوف.. كان في مكتبي أحيانا ثلاث روايات لم تنشر، ولكنني لم أضقْ بذلك أبدا. ولكن في هذه الليلة حدث لي انهيار.. أبعد هذه السنوات من العمل، أبعد هذا الجهد الشاق لا أستطيع نشر أكبر وأعز عمل؟. مررت بأيام يأس، وفي أحد المرات. كنت في نادي القصة، وتحدثت عن رواياتي الضخمة، التي فشلت في نشرها، واذا بالمرحوم يوسف السباعي يطلبها مني، قال: نحن سنصدر مجلة، لا أذكر متى دار هذا الحديث بالضبط، قبل الثورة أم بعدها؟ لقد انتهيت من الثلاثية في أبريل ١٩٥٢. يوسف السباعي أخذ مني «بين القصرين» كلها، وكانت نسخة مخطوطة، أي لم يكن لدي صورة منها، لم أكن قد نسختها على الآلة الكاتبة. نعم.. كان من الممكن أن تضيع، لو أن هذه النسخة الوحيدة فقدت من المرحوم يوسف السباعي لأي سبب لضاعت الثلاثية الى الأبد، بعد الثورة وتغير الظروف، اتصل بي، قال: سنصدر مجلة، وسننشر الرواية. ثم صدرت «الرسالة الجديدة» وبدأ نشر بين القصرين. من الذي شعر بنجاح المسلسلة؟ سعيد السحار، قال لي

ان الرواية ناجحة، ولكن صدورها في كتاب واحد مستحيل لأنها ضخمة جدا، اقترح تقسيمها الى ثلاثة أجزاء بدلا من ثلاث فترات، سألته: والاسم؟، قال: سمها ثلاثة أسماء. ومن هنا جاء عنوانا «قصر الشوق» و«السكرية»، وأصبحت بين القصرين ثلاثية..

أذكر الفترة التي تلت رفض السحار لنشرها بأسى، كانت صدمة فظيعة، بل إهانة، خاصة عندما قال لي لحظة رؤيته لها «ايه الداهية دي؟؟»..

صدرت الثلاثية، وانتشرت بسرعة، كان أول كتاب يروج لي خارج السلسلة الشعبية، «بين القصرين»، ثم توالت الطبعات، والرواج، حتى بدأ تزوير الكتب في بيروت سنة ١٩٦٥، منذ ١٩٦٥ حتى سنة ١٩٧٠، ضعفت حركة التوزيع ضعفا كبيرا، ماتت الكتب، بينما أصدقاء سعيد السحار في الخارج يرسلون اليه النماذج المزورة، ولم يكن هذا بالنسبة لي فقط، إنما لعديدين، التزوير استمر حتى الآن، لكن ربما كان له ما يبرره الآن، أقصد المقاطعة بسبب الظروف السياسية ولكن في عز ألمي بسبب التزوير كنت أجد عزاء من نوع آخر، اذ أوصلنا الكتاب المزور الى مناطق لم نصلها، مثل شمال أفريقيا، والسبب، اننا لم نكن نجيد عملية التوزيع.. كان انتشارا أدبيا، وليس ماديا، لقد طبع من أعمالي أكثر من مليون نسخة، لم أتقاضَ حقوقي إلا عن مائة وخمسين ألفا أو مائتين، الطريف ان المزورين كانوا يحتفظون باسم «مكتبة مصر وسعيد السحار» على الأغلفة، نفس الأغلفة ولكنها باهتة قليلا.

كنت فيما مضى أتخيل نفسي في السن التي أستحق فيها معاشا كاملا، وأخطط لاحالة نفسي حتى أتفرغ للأدب تماما بعيدا عن الوظيفة، ولكنني عندما وصلت الى هذه المرحلة من العمر اكتشفت أنني في حاجة الى مرتبي كاملا، أعباء الحياة تتزايد باستمرار، تصور ان المرتب الوحيد الذي كان يكفيني في حياتي منذ بداية الشهر وحتى نهايته، بل وأدخر منه، كان مرتبي الذي تقاضيته عندما التحقت بوزارة الأوقاف في الثلاثينات، كان صافي ما أقبضه ثماني جنيهات، وكانت سنوات الأزمة الاقتصادية التي أفلس فيها التجار، ولم ينج من ضنكها

الا أصحاب الدخول الثابتة، أقصد الموظفين. لم أفكر أبدا في الأدب كمصدر دائم للرزق، ان ذلك مستحيل عمليا، لكن هناك فترة كان من الممكن أن أكتفي فيها بدخلي من الأدب، وهي السنوات القليلة التي توالت فيها الطبعات وانتهى ذلك في سنة ١٩٦٥، عندما بدأ تزوير الكتب في الخارج..

الآن مستورة والحمد لله.

الروايات الكبرى... الثلاثية..

.. في الحقيقة ان فكرة الثلاثية جاءتني على دفعات، أستطيع تحديد اللحظات الاولى، كنت أقرأ في كتاب عن أجرومية الرواية، في الواقع انا قرأت العديد من الكتب عن فن الرواية، أول ما تعرض له هذا الكتاب الرواية التي يسمونها رواية الأجيال، أو رواية الأزمان التي تعرض أجيالا عديدة متوالية، أعجبني الشكل، هنا كنت أقرأ عن نوع محدد من الرواية، هنا بدأت محاولة التذكر، عما إذا كنت قد قرأت عملا أدبياً من هذا النوع؟.. لا.. لم أكن قد قرأت، بالمناسبة.. هناك أشياء تقرأها ولا تستجيب لها، وهناك قراءات أخرى تتجاوب معها، ما تردد داخلي بقوة، ضرورة أن أكتب رواية من هذا النوع، ولكنني ترددت، مثل هذه الرواية في حاجة الى تمرين طويل، وتفرغ كامل، يعني إذا كان لدي مشروع رواية أفرغ منه أولا، مثل زقاق المدق، السراب، وفي هذه الأثناء أصدر طه حسين رواية «شجرة البؤس»، وجدتها قريبة جداً من هذا النوع، أقصد رواية الأجيال، ولكنها قصيرة الى حد ما، في هذه الفترة أخطأت خطأ كبيراً، لم أكرره فيما بعد أبداً في حياتي، في هذه الفترة تحدثت كثيراً عن هذا النوع من الروايات، وأفضت في شرح أفكاري، ونيتي في كتابتها يوماً ما، أحد الأدباء الذين استمعوا إليّ ذهب وشرع في كتابة رواية من هذا النوع، أي رواية أجيال، وأصدرها بعد ستة شهور، منذ هذه التجربة تعلمت ألا أحكي أي شيء، أي تفاصيل عن مشروعاتي، بالطبع لك ان تتخيل قيمة الرواية من الناحية الفنية إذا كانت قد كتبت وصدرت في ستة شهور فقط..

المهم.. أعود إلى طه حسين، كانت شجرة البؤس رواية أجيال ولكنها صغيرة، سيطرت الفكرة عليّ تماماً، وهنا بدأت أقرأ الروايات الكبرى التي تعرض للأجيال، قرأت «ملحمة أسرة فورسايت» لجولز ورثي، و«الحرب والسلام» لتولستوي، و«آل بودنبروك» لتوماس مان، في لحظة معينة شعرت أنني وصلت إلى نقطة معينة امتلكت فيها زمام الموضوع، هنا نقطة لا بد من توضيحها وهي أنني لم أعتد قراءة أعمال معينة قبل أن أكتب إحدى رواياتي، ولكن هذه القراءات كانت جزءاً من ثقافتي واطلاعي، إن أعمالي تنتمي الى المدرسة الواقعية، وهناك روايات لا حصر لها تمت إلى هذه المدرسة، لكن العمل الأدبي الوحيد الذي كتبته ولم أقرأ له شبيهاً، ولم أستطع تصنيفه في مدرسة معينة، هو.. «حكايات حارتنا»..

شخصيات بين الواقع.. والخلق..

.. في السنوات التي سبقت الثلاثية كانت التفاصيل تتراكم من هنا وهناك، من جلسة، من حوار، من سهرة، إن تسعين في المائة من شخصيات الثلاثية لها أصول واقعية، بعضها من عائلتنا، بعضها من جيران، بعضها من أقارب، بالطبع الشخصية الواقعية تنسى، لأن الخلق يحيلها الى شيء آخر، الأصل في الواقع ينسى، ولا يعرف تاريخياً إلا طبقاً لتسجيلك أنت، الأصل لا يهم، وجدت أنها تجربة لا دخل فيها بشخصيتي، إن الثلاثية هي العمل الوحيد الذي يحتوي جزءاً كبيراً من عقلي وقلبي، بعض الناس يقولون لي، أليس في شخصية أحمد عاكف شيء منك؟، وهذا غير صحيح على الاطلاق، أحمد عاكف شخصية حقيقية، كان موظفاً في الجامعة، بالتحديد في إدارة الجامعة، قرأ الرواية بعد صدورها ولم يعرف نفسه، لم يعرف أبداً أنني استوحيت بطل الروايةَ منه هو، وهذا يدلك على شيء غريب أيضاً، رأي الانسان في نفسه، ورأي الآخرين فيه، ما أبعدهما عن بعض، كان أحمد أفندي عاكف الذي عرفته مجرد موظف صغير بادارة الجامعة، كان يظن أنه يعرف كل شيء في مصر، كان لديه البكالوريا فقط ويظن أنه جمع علوم الدنيا كلها، كان أرعن وسطحياً، والخاطرة التي تحملتها انه لو

عرف أنني استوحيته في « خان الخليلي » ربما هدد ذلك حياتي ، ربما كان يعتدي عليّ ، إذ أنه لم يكن طبيعياً بالمرة ، وبالمناسبة ، تعرضت حياتي مرة أخرى بسبب إحدى الشخصيات التي استوحيتها من الواقع ، أقصد بطل « السراب » ، إنه شخصية حقيقية ، كان حاصلا على ليسانس الحقوق ، إسمه حسين بدر الدين ، لم يكن يقرأ أي روايات أو أي نوع من الأدب ، أحد أصحابنا من شلة العباسية ، لعلك تذكره .. علي محمد علي ، ذهب إليه وقال له بسخرية « نجيب كاتب عنك » ، عندئذ أخرج مسدسه ، وشتمني ، بالطبع اختفيت عنه ، كان هذا الشخص من الأثرياء ، ضيع ثروته حتى تسول ، وكان ينام بمقهى الفيشاوي ، دخل السجن بسبب المخدرات ، كانت العقدة في حياته علاقته بأمه ، وكان دائماً يصاحب العديد من النساء ، وفي نفس الوقت لا يمارس أي فعل ، كان من الممكن أن يقتلني ، مع أنه لم يقرأ الرواية ، كان شخصاً شريراً شاذاً ، في الرواية تجد شخصاً آخر ، رقيقاً وهادئاً ، كاد صديقي علي محمد علي أن يتسبب في مأساة بسبب حبه للسخرية . سافر حسين بدر الدين إلى الكويت ، وهناك عمل بمساعدة أحد أصدقاء والده ، ثم مات ، أما أحمد عاكف الواقعي فلا أدري إن كان على قيد الحياة أم توفاه الله الآن .. أذكر أنه زارني آخر مرة منذ ثلاثين عاماً ، ثم اختفى .. والآن .. لنرجع إلى الثلاثية ..

الثلاثية

.. كتبت الثلاثية وأنا في عنفواني ، صبور ، جلود ، عمل كهذا كان يحتاج الى صبر ، الى صحة ، لو أنك رأيت أرشيف الثلاثية ستدرك مدى ما أقول ، ما خططته من أجل كُل شخصية ، كل شخصيّة كان لها ما يشبه الملفّ ، حتى لا أنسى الملامح والصفات ، خاصة وأنني أعمل في كل سنة من اكتوبر الى ابريل فقط بسبب مرض الحساسية الذي يصيب عيني ، كذلك التخطيط للرواية كلها بحيث تمضي في بناء متماسك ، قسم كبير من الاوراق ، والكراسات ، كتبتها في أكثر من أربع سنوات ، بدقة ، بهدوء ، بتأنٍ ، تحدوني الرغبة الى أن أنهي شيئاً جيداً ، ولم يكن صراعي مع اللغة قد بدأ بعد والذي واكب الأشكال الحديثة ، كنت

أكتبها بأسلوب هادىء، بالمناسبة، فان أكبر صراع خضته في حياتي مع اللغة العربية، منذ أول كتاب، في عبث الأقدار تجد أسلوباً قرآنياً. كما تعلمنا.. ان الأسلوب لا علاقة له بالموضوع، وعندما جئت إلى الأدب الواقعي، كان الأمر صعباً، كان الاسلوب لا يمشي في يدي، لا يطاوعني، دخلت في صراع بلا شعور بيني وبين اللغة، ربما لو كنت أدري أنني في صراع كنت فقدت الاتجاه، لكن الخناقة دارت في اللاشعور، كيف أذلل اللغة؟ كيف أطوعها؟ كيف يكون الحوار مقبولا مع أنه فصيح، ولذلك إذا استعرضت بعض القصص الأولى ستجد أشياء مضحكة، على سبيل المثال ربما تجد شخصية في مقهى بلدي وتتحدث بأسلوب فصيح متقعر، لم يكن هناك مثال أحتذيه. كل العباقرة الذين سبقونا لم يكتبوا عن أحياء شعبية، وإذا كتب، فانه يكتب الحوار بالعامية، ليست هنا مشكلة، وإنما ان تطور اللغة كي تصبح فنية وواقعية، فتلك مشكلة، وهذا أصعب ما وجدته، أو صادفته في حياتي الروائية، لم يكن هناك نموذج يحتذى، ومما يلاحظ على كتاب الدكتور عبد المحسن طه بدر «نجيب محفوظ.. الرؤية والأداء»، إنه لم يتكلم عني في موقعي، لم يقل، كيف وجدت الرواية، كيف تطورت بها، وإلى أي حد وصلت، لم يراع الظروف التي كانت محيطة بي في البداية، لقد تحدث حديثاً مطلقاً، كأنه يتكلم عن أديب انجليزي، لو رجع الى اللحظة الزمنية التي بدأت فيها الكتابة وعرف المتاعب التي واجهتني، لهذا جاء بحثه مجرداً، بحثاً عقلانياً.

معايشة دائمة

.. نعود إلى الثلاثية، ان مادتها يمكن القول انها عاشت معي منذ الطفولة، الناس الذين كتبت عنهم عايشتهم على فترات زمنية مختلفة من حياتي، الحكاية هي.. كيف كان يمكن أن أصب هذه التفاصيل في عمل واحد، الحقيقة من الصعب أن أقول لماذا خرجت بهذا الشكل، ولم تصدر بشكل آخر، كان من الممكن أن تخرج في النهاية بأشكال عديدة، كيف تكون في خلايا مخي بهذه الطريقة بالذات، فهذا ما لا أستطيع أن أجد له تفسيراً واضحاً، كانت الثلاثية شاغلي طوال السنوات التي عملت خلالها على إنجازها، وهنا أود أن أقول لك

ملاحظة هامة، إذا كان عندك موضوع معين فلا تؤجله. لماذا؟ كان عندي موضوع عن مصر الحديثة بعد الثورة، لم أفكر فيها كثلاثية مع أنني كنت أخطط لها على هذا الأساس، في هذه الفترة لم يكن لدي الصبر أو الجلد أو الثقة بأن العمر سيسمح بانجازها أثناء كتابتي للثلاثية كان عندي إحساس يقيني أنني سأنهيها، طبعاً من الممكن أن يموت الانسان في أي وقت، ولكن هذا الاحساس أفتقده الآن، لا اعتقد أنه يمكنني الجازفة بعمل ضخم كهذا في مثل عمري الآن... لا.. الحرافيش استغرقت في كتابتها سنة، فكرت فيها حوالي سنة، واستغرقت كتابتها سنة أخرى، وكانت دفقة خيال، لا يحتاج الى جهد كبير مثل الذي احتاجته الثلاثية، العمل الواقعي الذي يحتاج إلى رصد، وتجميع، أما وقت الحرافيش فكان ملموساً.. بخلاف الثلاثية، كانت شخصيات الثلاثية لا تبرح فكري إطلاقاً، ومن هنا حافظت على وحدة الاتجاه في الرواية، حتى فترة الاجازة، او في فترات الانقطاع بسبب شغلي في وزارة الأوقاف، حتى في السينما، كنت أعايش الشخصيات والأحداث، وعندما كنت استأنف الكتابة بعد انقطاع لم أكن أعيد قراءة ما سبق أن كتبته، الله يرحمه محمد عبد الحليم عبد الله قال لي إنه حريص على قراءة ما سبق أن كتبه، إنني أقرأ العمل بعد أن أعيد كتابته، بعد التبييض، أنتظر فترة، ثم أعيد قراءته، وفي جميع الحالات أشعر بعدم الرضى، أشعر بالفرق بين التصور المبدئي وبين ما أنتجته فعلا، بين الطموح وبين ما تحقق ولكنه عدم رضى لا يؤدي إلى إلغاء ما كتبته، المرة الوحيدة التي اضطررت فيها إلى إلغاء عمل كتبته حدثت بعد انتهائي من رواية «ما وراء العشق» وقد كتبتها خلال السنوات الأخيرة، بعد إنتهائي منها شعرت بعدم رضى نهائي، من الصعب أن أقول لك ما الذي أثار ضيقي منها، كنت مطمئناً إلى القسم الأول منها، لكن القسم الثاني أشعرني بعدم إرتياح ولكن هذا نوع مختلف عن عدم الارتياح الذي ينتج بسبب ما كان في خيالك، وما تحقق بالفعل، لقد كان لدي ثلاث روايات «أفراح القبة» و«ألف ليلة وليلة» وتلك الرواية، دفعت بالروايتين الأوليين الى النشر، واحتجزت «ما وراء العشق» الى السنة القادمة، كي أعيد فيها النظر..

كيف أنظر الى الثلاثية الآن؟

الحقيقة أنني لم أعد النظر فيها ، لم أقرأها مرة أخرى ، لكن يمكن القول أن الثلاثية وأولاد حارتنا والحرافيش ، هم أحب أعمالي إلى نفسي .. ، في الثلاثية كما قلت جزء كبير من نفسي ، يتمثل في شخصية كمال عبد الجواد ، وكمال لم يدخل الى الثلاثية اعتباطاً ، وليس لانه جزء مني ، ولكنه ظهر بهذه الصورة لأنه جزء لا يتجزأ من موضوع الرواية. الرواية قادمة من عصر كلاسيكي ، ومتوغلة في عصر رومانتيكي ، ومتجهة إلى عصر تحليلي ، وفيها تلاقي الشرق بالغرب ، ولكن ليس من خلال رحلة كتلك التي قام بها توفيق الحكيم ، أو يحيى حقي ، أو الطيب صالح ، انها تمثل الذي وجد الغرب وهو في الشرق ، جاءت إليه مظاهر الحضارة فكان لا بد من شرح هذه التغيرات في النفس وفي الروح وفي العقل ، ولما كنت قد عانيت بسبب ذلك تجربة ضخمة ، فكان من الضروري أن تنعكس في الرواية ، وجدت أن أفضل من يمثلها جيل الوسط ، بالطبع كان من المستحيل أن تجدها عند يس ، كان من الممكن ان يمثلها فهمي ، ولكن فهمي مات ، إن أزمة كمال هي أزمتي ، وجانب كبير من معاناته معي معاناتي ، من هنا يجيء حبي للثلاثية ، وحنيني إليها ..

الأدب العظيم.. ينبع من الذات..

.. مع تقدم العمر يشعر الانسان ويدرك أن منشأه هو المأوى!

كأنه يعيد دورة الحياة، إنه يقابل بعالم جديد يبدو لأول وهلة أنه ليس عالمه، لا يكفي أن تفهم عالماً ما حتى يصبح عالمك الذي يخصك، إن المعايشة أعمق من ذلك، نحن نتجه الى عالم جديد، هذا العالم يقينا لن أعايشه، أنا في نهاية مرحلة، أقول عمر، ما هي التجربة الحية المكتملة التي عشتها؟ ستجد أنها تتمثل في القديم، ليس بمعنى الرجوع الى قيمة، او بمعنى رفض الجديد، ولكن باعتباره المأوى الخاص بك، لانك عايشته وفهمته، أما الجديد، الآتي، فأنت تتمنى له الخير ولا شيء غير ذلك، لانك لن تشا ك فيه بنفسك، على سبيل المثال أنا عندي أولاد الآن، أدرك تماماً أنهم سيعيشون حياة مختلفة، أدرك أنني لن أشارك فيها. لذلك في هذا الاضطراب، في هذه الدنيا الغريبة، يركن الانسان الى طفولته، الى العمر الآمن الذي انقضى، من هنا قد أكون أجبت عن سؤالك حول حنيني الى الحارة، ومصادر رواية الحرافيش، والقدرة على استعادة واقع انقضى.. يخيل لي أن الانسان كلما تقدم في العمر يتذكر طفولته أكثر، ويستعيد تفاصيل كان يخيل إليه أنها اندثرت، لماذا؟ لان هذه الفترة عاشها حياة كاملة غير مرسومة. حدث لي أن كل التجارب الروائية الاولى كانت نتيجة حياة عاشت بدون تخطيط، الذي كان يتحكم في علاقاتها العلاقات الانسانية، أنت تعرف الانسان كإنسان.. وبس..، فيه مودة، نفور، حب، كله طبيعي، مع تقدم العمر وتبدأ في مراقبة الناس تحولهم الى أشياء ومواضيع، عندئذ يضيع منهم جانب كبير، يعني أنا أتصورك مثلا وأنت تلعب في الحارة، تعرف ناساً مفرقة

طبيعية ، بخيرها وشرها ، يصح أنك أصبحت اليوم بدون تلقائية الزمن الماضي ، لا .. لك فلسفتك ونظرتك ، ربما تنظر الى الناس من جانب الطبقات ، هنا فقدت الانسانية جانباً منها ، في الصغر كنت أشوف أحد الفقراء ، أرثي له ، أحزن ، أشوف واحداً ثرياً أنفر من جانب فيه أو العكس ، في الكبر بدأت أضع هذا في جانب ، وذاك في جانب ، هذا معي ، وهذا ضدي ، هذا يفقد جوانب ، الحياة الاولى هي التلقائية والطبيعية ، وتمدك بالانسان في كامل أبعاده ، ولا تعوض ، كلما تقدمت في السن ، وأصبح لك فلسفة ، ورؤية ، تتغير الأبعاد ، يصبح عندك منظور يرى الاشياء أكثر من غيرك ، وأشياء يعمى عنها لا يراها ، ولهذا التجارب الأولى ، عندما بدأنا الكتابة كنت لا أتخيل مطلقاً أنني سأصل الى نقطة معينة ولا أجد عندها ما أكتبه ، لماذا؟ لأن كل ما أراه جدير بالكتابة ، كان ذلك يبدو مستحيلا ، لكن بعد التقدم في العمر ، واكتساب رؤية وخبرة ، يبدأ في انتقاء موضوعات معينة تتفق مع رؤيته ، من هنا قد تمضي سنوات وهو لا يجد ما يكتبه ، كثير من الحوادث قرأتها في الصحف لم أتأثر بها ، حتى قرأت حادثة محمود أمين سليمان في الصحف ، من هنا ولدت اللص والكلاب ، لقد حدثت لي هوسة بهذا الرجل ، أحسست أن هذا الرجل يمثل فرصة تتجسد عبرها الانفعالات ، والأفكار ، التي كنت أفكر فيها دون أن أعرف طرق التعبير عنها ، العلاقة بين الانسان والسلطة ، ومجتمعه ، طبعاً بعد أن كتبت عنه ، لم أكتب قصة محمود أمين سليمان ، أصبح الموجود هو سعيد مهران ، في فترة بدائية قبل ذلك ، كانت كل حادثة تستحق أن تكتب ، الآن كم من الحوادث تمر بي ولا تستحق أن تكتب من وجهة نظري ، ان المنجم الحقيقي في الماضي البعيد ، ستجد أنك تحب كل من عرفت ، وترغب في الكتابة عنهم ، أما الآن فالأمر عكس ذلك ..

الشكل والمضمون

.. حنيني الى الحارة جزء من حنيني الى الأصالة ، عندما بدأنا نكتب الرواية ، كنا نظن أن هناك الشكل الصح والشكل الخطأ أي أن الشكل الأوروبي للرواية كان مقدساً ، بتقدم العمر تجد أن نظرتك تتغير ، وأنك تريد

أن تتحرك من كل ما فرض عليك، ولكن بطريقة تلقائية وطبيعية، وليس لمجرد الخروج أو كسر الشكل عمداً، تجد نفسك تبحث عن النغمة التي تستخرجها من أعماقك، أيا كانت هذه النغمة، سواء عادت بك الى القديم، أو قادتك الى المودرنيزم، أو عادت بك الى الحدوته يعني كأنك تقول، ما هي الأشكال التي كتبوا بها، أليست طرقاً فنية خلقوها هم؟، لماذا لا أخلق الشكل الخاص بي الذي أرتاح إليه؟ بالنسبة لي فيا يتعلق بالثورة على كل ما هو أوروبي أو تقليدي ازدادت خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة، أصبحت ثقتي في نفسي أكثر، أصبحت أبحث عن النغمة التي أكتب بها من داخل ذاتي أكثر، اتجاهي الى الحدوته أحد معالم هذه المرحلة، أخص بالذكر الحرافيش، بعد الحرافيش حاولت أن أستوحي عملاً قديماً، وهو ألف ليلة وليلة، وهي رواية لم تنشر بعد، لكن يجب أن أوضح لك شيئاً مهماً، وهو أن تقليد القديم مثل تقليد الحديث كلاهما أسر، المهم أن تبحث عما يتفق مع ذاتك، طبعاً الكاتب الاوروبي الذي بدأ معي يبحث عن ذاته من أول يوم، ليس لديه عقد، ولأنه لا يأخذ ثقافته من الخارج ولكن بالنسبة لنا نحن الكتاب الذين ننتمي إلى العالم المسمى بالنامي أو المتخلف فقد كنا نعتقد وقتئذ أن تحقيق ذاته الحقيقية الأدبية لا يجيء إلا بإلغاء ذاته، يعني أنه الشكل الروائي الأوروبي، مقدس، والخروج عنه كفر، لهذا خيّل لي في لحظة معينة أن دور جيلنا هو أن يكتب الرواية بشكل صحيح، لأنني كنت أتصور أن هناك رواية صح، ورواية غير صح، الآن.. تغيرت النظرية، الرواية الصحيحة هي النابعة من نغمة داخلية، فلا أنا أقلد المقامة، ولا أقلد جويس، يعني الحقيقة أنا حالياً لا يثير أعصابي إلا التقليد، حتى القديم، وما أرجوه حقيقة من الجيل الذي يلينا، والذي قد يصل بنا إلى العالمية أن يكون أكثر إخلاصاً بالنسبة لهذه النقطة، الاخلاص للذات، لانه لا يجب أن يكون الموضوع فقط محلياً، ولكن الشكل أيضاً، يوم أن نحقق هذا، يمكن القول عندئذ أننا قدمنا أدباً عربياً صحيحاً الى العالم..

.. ربما كانت ثرثرة فوق النيل، واللص والكلاب، محاولة لكسر الشكل

التقليدي في الرواية كما تقول، ولكن لاحظ أن ذلك في إطار الشكل الاوروبي، الحقيقة أن الانسان فيه قدر من الأصالة مهما حاول التقليد، لذلك تيار الوعي في أيدينا لم يعد هو تيار الوعي هناك، كذلك اللامعقول بين أيدي كتابنا أصبح لا معقولاً مختلفاً، لا معقولنا يؤدي الى المعقول، لم يكن الأمر مجرد محاكاة فقط، إنما خلق شيئاً مختلفاً.

.. لكل كاتب نوعية من الشخصيات يفضل التعامل معها، لكن المسألة لا تجيء بتخطيط، الموضوع يجيب صاحبه معه، أحياناً الواحد يكون قد عرف شخصيات وينساها، ثم يطفى فجأة في فترة معينة، بعد أن يعرف الانسان طريقه، ككاتب مسرح، أو رواية، يكون غالباً في العشرينات عنده مخزون تجارب لا حصر له، تؤثر في الوجدان ومتراكمة، تصبح المشكلة الأولى بأي شيء تبدأ، لذلك كانت الالهامات سريعة، بعكس الحال بعد تقدم السن، ويكون قد تحرر من ضغوط الوجدانات الكثيرة التي صاغ منها سلسلة أعماله، الاختيار مع تقدم العمر يصبح أصعب، في البداية تكون أشبه بأنك عندك مخزون سلعي كبير، ثم تخلصت منه، بعد ذلك يكون الانتقاء، ما يثير سخريتي، إن بعض الناس يقولون «الكاتب ده قال اللي عنده» ماذا يعني الذي عنده، إننا هنا لسنا أمام فيلسوف، أو مفكر، بالنسبة لهؤلاء كتاب او كتابين وقد ينتهي الأمر، لكن بالنسبة للأديب فان الحكاية تشبه الغريزة الجنسية، طالما فيها حيوية تحتاج الى الخروج، هذا هو الاساس، إذا ذهبت هذه القدرة انتهى الأمر حتى ولو كانت الدنيا كلها مواضيع، هو ده الأساس، مش واحد يقول لك، دا عنده حاجة عايز يقولها، عايز يقول ايه؟ لذلك لما تقول على أي أديب، دا عاوز يقول ايه، من الصعب، لكن من السهل أن تجيب على سؤال كهذا بالنسبة لشوبنهاور أو نيتشه، من أغرب الأسئلة التي أسمعها، واحد يسأل «أنت عاوز تقول إيه في القصة دي؟»، طيب ما أنا لو عاوز أقول حاجة معينة أقولها في جملة أو مقالة، وخلاص.

السياسة.. والثورة..

لست معاديا لثورة يوليو..

.. دخلت السياسة حياتي منذ الطفولة، عندما كنت أرى المظاهرات في ميدان بيت القاضي، في المنزل كان الوالد والوالدة متعاطفين مع الوفد، واذا ذكر اسم سعد زغلول فانه يذكر باحترام، وتقديس، وعندما بدأت أقرأ الصحف، كنت أجري بعيني على السطور حتى أجد اسم الزعيم فاتوقف عنده، لكن ما زرع في أرواحنا الوطنية، وعلمنا أصولها، فهم المدرسون، خاصة أولئك المعممون من أساتذة اللغة العربية، كانوا يتوقفون خلال الحصص عن الدروس ويبدأون أحاديثهم عن الوطنية، وكانوا يوبخون الطلبة الذين لا يشتركون في المظاهرات او يتهربون منها كانت اللي ماسكة غطاء حلة، أو ايدهون، أو عصا، النساء المحجبات كنّ ماشيين بوقار منظم، صحيح.. كترخيرهم، لكن المظاهرات الحقيقية كانت في الاحياء الشعبية.. كانت الاضرابات تبدأ بعد الطابور مباشرة، يعلو التصفيق، ثم نلقي بالملاعق لأن المدارس كانت تقدم لنا طعام الغذاء، وكان المدرسون يشجعوننا على الخروج في المظاهرات، ما أذكره ويهزني حتى الآن مظاهرات النساء في ميدان بيت القاضي وشوارع الجمالية، كتب التاريخ تحدثك عن مظاهرات المحجبات من سيدات المجتمع، وخروج طالبات مدرسة السنية، لكنها لا تذكر مظاهرات نساء الحوارى والأزقة، لقد رأيتهم بعيني، وكان شيئاً لا مثيل له.. في صور المظاهرات ترى النساء المحجبات زوجات الباشوات، ويقولون.. المرأة المصرية، مرأة مصرية مين؟ أنا شفت آلاف النساء في الجمالية فوق عربات الكارو.. نساء الحوارى..

ملحوظة:

نستعيد الفصل الخاص بالشيخ عجار المنياوي في رواية المرايا: كان الشيخ عجار المنياوي مدرس اللغة العربية في مدرستنا الابتدائية، ولحق بنا في المدرسة الثانوية، وكان من أهل الصعيد، ينطق بلهجتهم، قويّ البنيان طويل القامة غامق السمرة، قليل العناية بمظهره، فمته أصفر مما ينبغي ولا ذوق له في اختيار ألوان الجبة والقفطان، ولكنه كان يفرض الاحترام بقوة شخصيته والتمكن من مادته وشجاعته الفائقة، ولم يكن متزمتا، كان يحب النكتة، ويروي لنا جميل الأشعار، ومرة تبارى في فناء المدرسة مع مدرسي الرياضة البدنية في التحطيب، فلعب بعصاه برشاقة أذهلتنا وانتصر على خصمه وسط تصفيق حاد. ومرة دخل جعفر خليل الفصل متأخراً بعد أن انتظمنا في مجالسنا، وكعادته في حب المزاح، قلد استاذنا فقال له:

- عم صباحا.

وضحك الفصل وانبسط جعفر، وتركه الشيخ عجار حتى جلس، ثم ناداه:

- جعفر خليل.

فوقف فقال له بهدوء:

- اعرب «عم صباحا».

وعجز جعفر عن إعرابها ففتح الشيخ دفتر يومية التلاميذ وأعطاه صفراً فاحتج جعفر قائلا:

- انها صعبة!

فقال الشيخ بهدوء:

- ولم تستعمل ما لا تفهمه؟

أما جانبه الجاد فكان فذا لا يتكرر، كان في المدرسة الابتدائية - عصر الثورة - مدرسا للغة العربية والوطنية. فلدى أي مناسبة يفتح باب الحديث الوطني، يستعيد الذكريات المجيدة. ويشيد بالأبطال، ونحن نتابعه والدموع في أعيننا، وكان يحدث عن

سعد زغلول وكأنه ولي من أولياء الله أو صاحب معجزات، معتبرا زعامته رسالة سماوية ومعجزة تاريخية، ومنه عرفنا ما لم نكن نعرف عن نشأة سعد، ومهارته في المحاماة، ومواقفه في نظارة المعارف ونظارة الحقانية، وزعامته، وتحديه لقوة الانجليز، وسحره وبلاغته، وما ينتظر البلاد على يديه، وكان يقول:

- ببلاغته عبأ الشعور، وباسمه قامت الثورة..

وكان يعرف التلميذ الكامل فيقول:

- هو من يحصل العلم ويثور على الطغاة.

وكنا نحبه بقدر ما نجله، ونتلقى عنه الوطنية والاصالة، وبفضله أحببنا اللغة العربية وعشقنا أشعارها.

وفي المدرسة الثانوية تغير مذاق الجهاد، فتوارت عنا وجوه الانجليز وبرزت في الصورة وجوه المصريين الموالين لهم، واحتلت الحزبية المكان الأول في الصراع. وخاض الشيخ المعركة الجديدة بنفس القوة والصلابة، وكان يقول:
- المعركة هي المعركة ولكن الأعداء ازدادوا عدداً فوجب علينا مضاعفة الجهاد.

ويوم أضربنا على عهد محمد محمود، اليوم الذي استشهد فيه بدر الزيادي، أخرجه ناظر المدرسة فطالبه بأن يخطب التلاميذ حاثاً إياهم على الانتظام في الدراسة. وكان في طبعه حدة تثور على التحدي وتنفجر غضبا أعمى، فاعتلى المنصة أمام حجرة الناظر وصاح بصوت رهيب:
- العلم يطالبكم بالنظام والوطن يطالبكم بالجهاد وليس لكم إلا ضمائركم فارجعوا اليها..

وكتب الناظر تقريراً عنه فرفعه الى وزير المعارف وسرعان ما تقرر فصله. ويوم غاب عن المدرسة وانتشر الخبر هاجم الطلبة حجرة الناظر حتى اضطر الى الفرار من المدرسة، واضطرت الوزارة الى نقله حماية لحياته. وقد عاد الشيخ الى المدرسة في عهد الوفد ولكنه فصل مرة أخرى في عهد صدقي، فعمل في مدرسة بين الجناين الأهلية التي كان يملكها رجل وفدي معروف. وفي حكومة المعاهدة تعين مفتشا بالوزارة وسويت حالته تسوية عادلة. وفي انتخابات ١٩٤٢ رشح نفسه على مبادىء الوفد فنجح. كما نجح مرة أخرى عام ١٩٥٠. وقد التقيت به مرات في بيت رضا حمادة كما عرفت بعض أبنائه. ولما صدر قرار حل الأحزاب - بعد ثورة يوليو - رجع الى قريته في الصعيد فلم يبرحها، ولا أدري إن كان ما زال على قيد الحياة أم انتقل الى جوار ربه. ومما يذكر أنه في سبتمبر عام ١٩٥٢ أو١٩٥٣ وكنت ماراً أمام نادي الجيش القديم بالشاطبي، رأيت بعض أعضاء الوفد واقفين في فناء النادي يحيط بهم جند، وسمعت من بعض المارة بأنهم اعتقلوا وسيرحلون الى القاهرة، ورأيت بين الضباط الذين يشرفون على الاجراءات الضابط محمد عجار ابن شيخنا القديم عجار المنياوي. تأملت الموقف، نظرت طويلا الى الابن، تذكرت الأب، ثم خيل إلي أني أسمع هدير الزمن وهو يتدفق حاملا متناقضاته المتلاطمة.

كدت أفقد حياتي

اشتركت في جميع المظاهرات التي جرت، أذكر أنني أمشي مع عدد من الأصدقاء في شارع محمد علي، فجأة رأينا أحد أبناء البلد يحمل حجرا كبيرا

ويضرب رأس كونستابل انجليزي فيصرعه. في نفس اللحظة رأينا عدداً من الخيالة قادمين من ناحية العتبة الخضراء، نظرنا الى الخلف لنستدير ونجري، فوجئنا بقوات من الجيش، كنا محصورين، ولا أحد سوانا في الشارع وجثة القتيل الانجليزي ملقاة أمامنا، أما ابن البلد فقد هرب، تعرف ان بعض حوارى شارع محمد علي منحدرة الى أسفل، تؤدي اليها سلالم، صاح أحدنا..

إجر إجر

جرينا، جريت بأسرع ما يمكن أن أجري به، من حارة الى حارة، حتى فوجئنا بحارة سد لا تؤدي إلى أي منفذ، أدركنا يأس قاتل، فجأة أطلت امرأة من احدى الشرفات، وأشارت الى باب البيت، دخلنا، أغلقنا خلفنا، نظرت إلينا من فوق السلم،

اطلعوا..

طلعنا الى السطح، عبرنا الى السطح المجاور، نزلنا في بئر السلم، انتظرنا حوالي نصف ساعة، خيم فيها صمت فظيع، ثم خرجنا، ومشينا حتى شارع عبد العزيز، ثم الى العتبة الخضراء..

المظاهرة التي مات فيها فهمي عبد الجواد في الثلاثية مظاهرة حقيقية من الناحية التاريخية، لم أستوح هذه الحادثة في الثلاثية، أما مظاهرة فهمي فكانت عند حديقة الازبكية، مظاهرة مسموح بها، وكان فيها الطلبة والعمال، والقضاة، وفجأة أطلق الانجليز النار، وقتلوا عدداً من الناس، لا أدري لماذا اخترت هذه المظاهرة بالذات ليموت فيها فهمي، هذه ناحية لا أستطيع تفسيرها..

الكفر..

كان الوفد هو حزب الأمة بلا جدال، وكان من يقول انه ليس وفديا يبدو في نظرنا كأنه كافر، كان الوفد يعبر عن القضية الوطنية والاجتماعية، كان أول انقلاب على الدستور مصيبة، بعده كنت أمشي أكلم نفسي من الضيق والقهر، ثم بدأت المشكلة الاجتماعية تلفت النظر أضف الى ذلك تأثير سلامة موسى، لهذا

وجدت أن أنسب شيء هو الجناح اليساري للوفد ، لهذا عندما جاءت ثورة يوليو وأعلنت مبادئها خيل إليّ أن هذه هي مبادىء الجناح اليساري الوفدي لو أنه حكم ، لهذا ، رحبت بها حقيقة ، بل انها تجاوزته الى تغيير الملكية وهذا ما لم يكن سيحققه يسار الوفد ، لقد رحبت بالثورة فعلا ، طبعا كنا نتمنى لو أن الثورة اتخذت قاعدتها من الوفد اساسا باعتبار انه القاعدة الشعبية القديمة ، لكن ما يحدث دائما عكس ذلك ، لأن للثورة شعبية ايضا وستصبح مهددة ، لسوء الحظ عادت الثورة الوفد ، وكان يمثل قاعدة شعبية ، ومن هنا بدأ ضرب الديموقراطية ، كان من الممكن في رأيي أن تمضي المسيرة الديموقراطية اذا ما اعتمدت الثورة على انجازاتها كضرب الاقطاع وانهاء الاحتلال ، كان سينضم الى الثورة أنظف من في الأحزاب ، لكن ضاعت الفرصة ، لهذا وقعت في اطار الحكم العسكري ، صحيح أنها أنجزت إنجازات هامة ، لكن غياب الديموقراطية يهدد الاصلاحات ، واذا تأملت الآن ماتم ستجد أنه أضير بسبب غياب الشوري والديموقراطية ، معظم الاخطاء التي وقعت كان سببها الإنفراد بالرأي والقرار ، الحكم الفردي يصبح كالقضاء والقدر ، وأنت وحظك..

الزعيم..

.. لم أر سعد زغلول بعيني ، يوم أن ذهبت الى عابدين لأراه ، جاء في سيارته لمقابلة الملك ، ولكن الكتل البشرية حالت دون رؤيتي له ، عيني لم تقع عليه ، رحت بيت الأمة أيام النحاس ، من المشاهد التي لن أنساها ، جنازة سعد زغلول ، طبعا من الصعب مقارنتها بجنازة جمال عبد الناصر ، لأن القاهرة في الوقت الأول كانت مليونا فقط ، ولكن المؤكد أن المشهدين من أجل الحوادث التي شهدتها القاهرة في هذا القرن ، كان سعد محبوبا الى درجة غريبة ، لي صديق قبطي ، اطلعني منذ سنة أو سنتين لا أذكر على دعوة زفاف أخته ، أنت تعلم أن دعوة الزفاف تكون مبهجة ، هذه الدعوة كانت مجللة بالسواد ، كان مكتوبا فيها « فلان وفلان يدعونكم الى كنيسة كذا لحضور اكليل.... والبقية في حياتكم لموت زعيم الأمة » ، طبعا في ظروف عادية هذا يثير التشاؤم ، هل رأيت او سمعت عن دعوة زفاف بهذا الشكل؟

إنها فترة لا توصف، حتى المؤرخ الذي كتب عن هذه الفترة يختلف عن الذي عايشها بنفسه، هناك ناس يستكثرون هذا الحب بالنسبة لسعد، ولكن هذا الحب كان مدرسة للوطنية، كانت مصر تقاطع البضائع الأجنبية، لأي موقف، كنت تشوف المحلات الكبرى الأجنبية فارغة تماما من الزبائن، أما شركة بيع المصنوعات فالزحام فيها لا يطاق، أي حاجة مصرية حتى لو رديئة جدا كانت تثير الفخر.

لست معاديا للثورة..

.. في جميع ما أكتب ستجد السياسة، من الممكن أن تجد قصة خالية من الحب أو أي شيء، الا السياسة، لأنها محور تفكيرنا، كله الصراع السياسي موجود، حتى في أولاد حارتنا التي يمكن أن تصفها بأنها رواية ميتافيزيقية ستجد الصراع على الوقف، بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ تناولت موضوعات حساسة جدا، مثل ميرامار او ثرثرة فوق النيل، الحقيقة أنت قلت كلمة صادقة جدا منذ أسبوعين، قلت إن نجيب محفوظ عندما يكتب لا يعبأ بشيء، وينسى كل شيء: هذا حقيقي، كنت أحياناً بعد أن أسمع ردود الفعل أتوقع أشياء مرعبة، خاصة بعد قصة مثل «الخوف»، في الشارع مرة أجد واحداً يسألني عن معناها، ربما تكون حاجة بريئة، لكنني كنت أخاف، لكن لاحظ أنا كنت أنقد الواقع نقد المنتمي اليه، أنا لم أرفض ثورة يوليو مطلقا، ولم أكتب أي عمل ضدها، أنت تعلم أن هناك روايات معادية للثورة، كنت أوجه النظر الى سلبيات تسيء الى الثورة، لن تجد كلمة بالاشارة او التلميح ضد الاصلاح الزراعي، أو مكاسب العمال والفلاحين، في ميرامار انتهازية الاتحاد الاشتراكي، هذا كان حقيقيا، ربما كان ذلك سببا في عدم البطش بي، أيضا فإن إحساسك بالبراءة يمنحك الشجاعة، بمعنى أنني لم أكن منضما الى جماعة سرية، أو متصلا بسفارة ما، ليس معقولا أن أكون معاديا للثورة ثم أكتب في الاهرام، وأمنح كل هذه الفرص التي حصلت عليها..

ابنتي تسأل من هو سعد زغلول؟

.. لم أعرف أي شخص من زعماء الوفد معرفة شخصية، كل الوفديين الذين أحببتهم، عرفتهم في جلسة توفيق الحكيم خلال السنوات الأخيرة، هل تذكر محمود غنام؟، قابلته عند توفيق الحكيم، وقال لي إنه شافني في التليفزيون، وسمعني أقول إن أحب زعيم الى نفسي هو سعد زغلول، قام نط مفزوعاً من الكرسي، قال لي: أنا افتكرت انه حيقبض عليّ أنا مش انت، ورحت أسأل، مين ده؟، بعد ظهور الثلاثية، كثير من الوفديين وجدوا فيها أول كلام جيد عن الوفد، حتى الذين خرجوا عن الوفد قبل الثورة قرأوها وشافوا روحهم فيها، يعني مثلا ابراهيم عبد الهادي كان يقرأها ويحض النـ'ـس على قراءتها، كثير من التاريخ الذي حفلت به الثلاثية كان مات، واسم سعد زغلول لم يكن يذكر في المدارس، بعد ظهور الوفد الجديد منذ ثلاثة أعوام أرادوا أن يحييوا ذكرى سعد والنحاس، بنتي الصغيرة سمعت اسماً جديداً، فسألتني عن سعد زغلول وهل لا زال يعيش.. من أين هذا؟ طبعاً صدمت صدمة كبيرة..

مصر الفتاة والاخوان

.. كنت أعرف الاخوان المسلمين، ومصر الفتاة، وأتابعها، مصر الفتاة بدأت كنشاط شبابي، ومشروع القرش لصناعة مصنع للطرابيش، ولكنها كانت تخفي هدفا سياسيا، وكان زعيمها انتهازيا، أعلن تأييده لمحمد محمود، كيف تؤيد اتجاهاً معتدلاً وأنت تعلن التطرف؟ وفوجئنا بهم وقد أصبحوا فاشيست، عاديناهم، ولم أتعاطف معهم أبداً، أما الذين كرهتهم منذ البداية، فهم الاخوان المسلمين، الاخوان في البداية كانت جمعية دينية تضم وفديين وغير وفديين، ولكن عندما وجدناهم بدأوا ينافسون الوفد، عاديناهم، كنا نعتبر أي منافسة للوفد، بمثابة إضعاف لقوتك الضاربة، لم يكن الوفد في الانتخابات يرشح أمام مرشحي الاخوان إلا الاقباط، وكان مرشحو الوفد يكتسحون.

لم يكن لي أصدقاء من الاتجاهات الأخرى إلا استثناءات محدودة جدا مثل

عبد الحميد السحار، الذي كان يميل الى الاخوان، كان يقول لي تعال قابل الشيخ البنا وبعدين احكم. لكنني لم أكن أطيق هذه السيرة أبدا..

عبد الناصر..

.. لم ألتق بعبد الناصر في لقاءات خاصة، إنما رأيته ثلاث مرات عندما حصلت على وسام الاستحقاق من الدرجة الاولى، طلعت وسلمت عليه ونزلت، المرة الثانية سنة ١٩٥٧، كان هنا عدد من الأدباء العرب، التقى بهم، وكنت أحد الذين ذهبوا الى اللقاء، المرة الثالثة كانت في الاهرام، عندما زاره في سنة ١٩٦٩ اذا لم تخني الذاكرة، كان يتحدث الى كل شخص، قال لي:

ازاي ناس الحسين بتوعك.. بقالنا زمان ما قريناش لك قصة..

هيكل قال له:

لا.. دي بكرة طالعه له قصة

كان يوم خميس، هيكل قال:

نعمل ايه.. ما هي قصصه تودي الليمان..

عبد الناصر قال له:

لا.. دي تودي رئيس التحرير..

طبعا عبد الناصر وسعد زغلول طوران مختلفان، عبد الناصر أنجز أشياء بارزة للبلد لا يمكن أن تغفل، من الصعب المقارنة، سعد زغلول كان الشرارة الاولى، كان يريد الاستقلال، عبد الناصر جاء الى البلد وهي شبه مستقلة، وأنجز ثورة اجتماعية حقيقية، للأسف الثورة اتخذت موقفا معاديا من سعد زغلول، حتى منع اسمه من الكتب والافلام الى آخره، ثم دار الزمن دورته، منذ أيام كنت أشاهد فيلما عن وفاة تيتو، وظهر جميع زعماء العالم الذين عرفوا تيتو، ما عدا صورة عبد الناصر، مع أنك تعرف الى أي مدى كانت علاقة عبد الناصر بتيتو!

التاريخ والمأساة..

كنت عزوفا عن إقامة أي علاقة مع المسؤولين او السياسيين، لم أسع لمقابلة

أحدهم، للأسف تاريخنا الحديث ثورات ونكسات، لو أن الأمور مضت بشكل سليم منذ عهد محمد علي لأصبحنا مثل اليابان الآن. السياسي العبقري هو الذي يفهم الظروف، ثم يتخذ القرار المناسب، الى أي حد يجب أن يخوض المعارك مع القوى الأجنبية، ومتى؟.. لو.. ولكن التاريخ لا تصح فيه كلمة لو.. والانسان لا يتذكر التاريخ إلا بعد أن يصبح الأمر مأساة..

* * *

الفتوات.. والمقاهي

.. ترجع ذكرياتي عن الفتوات الى منطقة الحسين، كان من المعروف في صغري أن لكل حارة، أو حي، فتوة، شفت الفتوات في نوعين من الحوادث، أولا.. الزفة، كانت الزفة تبدأ بعد منتصف الليل، أصحى من النوم على واحد بيغني والصهبجية يردّوا وراءه، وحملة الفوانيس، يمرون من أمام قسم البوليس في ميدان بيت القاضي، يظهرون من حارة معينة، غالبا في الزفة يحدث أن يعترضها فتوات، لأنه لو فيه ثارات قديمة، تصبح هذه أحسن فرصة للثأر، الفرح ينقلب الى نكد، شفت زفة تنقلب الى خناقة دموية أمام القسم، النوع الثاني، كان الفتوات يتفقوا على الخروج الى الخلاء، فتوة العطوف مثلا مع فتوة قصر الشوق، للخناق، لكل فتوة له رجاله، يشيلوا المقاطف المليئة بالطوب والزجاجات، ويتجهون كلهم الى الخلاء، خلاء كان اسمه أرض المماليك، وبعد أن يُحطِّم كل منهم الآخر، كنت أرى النتيجة، السيارات تحملهم الى قسم الجمالية، تحرر لهم المحاضر ثم تجيء عربات الإسعاف لتشيل الجرحى، فيه منظر ثالث شفته، لكن لا يمكن أن تسميه فتوة، كان رجلا هائل الحجم، عملاقا أعمى، عادة كان يمشي في حاله، ولكن اذا استفز فانه يصبح قوة مهولة، رأيته بعيني يقهر فرقة بوليس كاملة، كان الأمر بالقبض عليه مهمة عسيرة جدا، الحقيقة أنني منذ خمسة عشر عاماً قرأت عنه ريبورتاج انما في آخر ساعة أو المصور، كان بدون صور، ذكريات يبدو كتبها أحد أبناء المنطقة.

ملحوظة:

نستعيد هنا الحكاية رقم «٤١»: من حكايات حارتنا.

ابراهيم القرد أضخم بناء إنساني تشهده عيناي، لا أتصور أن يوجد بين البشر من

هو أطول أو أعرض منه. مئذنة، يتحسس طريقه بنبوت رهيب، تحمله قدمان حافيتان كأنها سلحفتان، يقول أهل حارتنا إنه من لطف الله أن يخلق ابراهيم القرد ضريرا. وهو الشحاذ الوحيد في حارتنا فمنذ احترف التسول لم يتجرأ شحاذ آخر على ترديد «لله يا محسنين».

يقعد الساعات متربعا عند مدخل القبو، معتمداً على نبوته، صمت طويلاً، يتفجر بصوت كالرعد «يا أكرم من سئل»، يجيئه الطعام في أوقاته، تتراكم الملاليم في جيبه، يتبادل التحيات مع السابلة.

وبسبب من حدة التناقض بين قوته الخارقة وبين حرفته المستضعفة فانه مثار للابتسام، ولكن بلا حنق أو حقد، فحسبه أنه ابن حارتناوحسبه انه لا يستثمر قوته في العدوان!

ويشاء الحظ أن أشهد معركته الكبرى.

ففي أحد المواسم يهبط حارتنا زلومة - شحاذ ضرير أيضاً - من القبو راجعا من القرافة مثقلا بالفطير والتمر، فيختار مجلسا غير بعيد من القرد ليستريح من عناء يوم مظفر.

ها هما الشحاذان الضريران يجلسان على جانبي مدخل القبو كأنهما حارسان. ويتلقى القرد بأذنيه الحادتين رسائل خفية من حركات شفتي زلومة، كما يتلقى أنفه رسائل مغرية من جراب الأغذية، يتجه رأسه نحو الرجل باهتمام وتساؤل وتحفز.

ويهتف زلومة في غبطة:

- يا حسين يا حبيب النبي يا سيد الشهداء.. مدد.

فيقطب ابراهيم القرد ويتساءل بغلظة:

- من؟

فيجيبه زلومة ببراءة:

- سائل على وجه الكريم!

- وماذا جاء بك الى هنا يا ابن الزانية؟

فيسأل زلومة بحدة:

- أملكت أرض الله؟

- ألا تراني؟

- إني أرى بنور القلب.

فيتمتم ابراهيم القرد:

- عظيم.

يتمطى بنيانه قائمًا ويمشي نحو زلومة وكأنما يراه، يقبض على منكبه، لا أدري ماذا يفعل به ولكني أرى الرجل وهو يصرخ ويتلوى ويستغيث. ويتجمهر أناس كثيرون، يخلصون بينهما بعناء شديد، يبدو من البعض كلمات غاضبة:

– افتراء وظلم.

– أنت وحش.

– أنت لا تخاف الله!

ويصيح ابراهيم القرد:

– عليكم اللعنات.

ويغضب أحدهم فيرميه بسلة محطمة ملقاة.

ويثور القرد. أجل يثور ثورة أكبر من ثورة مظاهرة زاخرة. كأنما هرست له دملا. يجن جنونه، يهدر بأقذع الشتائم، يشهر نبوته ويدور به ويضرب به كل مكان فيرتطم بالجدران والأشياء، وينشر الفزع في دائرة آخذة في الاتساع. يتفرق الرجال، يركضون، يتلاطمون، يعثرون فيسقطون، يصيحون، يستغيثون، القرد ينقلب قوة عمياء مدمرة تجتاح الحارة، يلوذ الناس بالأزقة الجانبية، تغلق الدكاكين، تتحطم الكراسي والسلع وتنقلب السلال والمقاطف.

وتتدفق قوات الشرطة على الحارة. يذهل الضابط عندما يدرك أن المتدي ما هو إلا شحاذ ضرير، ثم يأمر جنوده بإلقاء القبض عليه.

وتتجدد المعركة بين القرد والجنود، يخوضها الجنود عزلا من السلاح بأمر من الضابط ولكنهم لا يلبثون أن يتطايروا في الهواء كاللعب، إنه قوة لا تغلب.

ويتجمع الغلمان في الأطراف ويشجعون القرد بهتاف صاخب. الحق إنني لم أر رجال الداخلية من قبل على حال من التعاسة كما أراهم الآن، ويصيح الضابط من داخل بدلته البيضاء ذات الشريط الأحمر:

– يا قرد. ستضرب بالرصاص إن لم تسلم نفسك في الحال. ولكن القرد يتمادى في التحدي منتشيا بثوران القوة والنصر. ويرجع الضابط فلا يأمر باستعمال هراوة أو بندقية ولكنه يستدعي بعض رجال المطافيء.

ويتدفق الماء من الخرطوم كالشلال فيتصب قوته التي لا مفر منها على القرد. يرتبك القرد ويتعثر ويدور حول نفسه مترنحا منهزما حانقا قاذفا بسيل من السباب المقذع، ثم يتهاوى فوق اديم الأرض بلا حول فينقض عليه الجنود بالأغلال.

ويغيب القرد عن حارتنا فترة من الزمن، ولكنه يرجع ذات يوم ببنيانه الضخم

وهامته المرفوعة فيلقى استقبالا حيا وتحيات حارة... فيواصل حياته السابقة متمملقا عند مدخل القبو مثل أسطورة.

عرابي وسعد..

انتقلت الى العباسية. اشتبكت صورة الفتوة مع صورة الشجيع الذي رأيته في السينما، كنت أرى أفلام الشجيع في سينما الكلوب المصري وعمري أربع سنوات، سينما الكلوب أقدم سينما في القاهرة تقريبا، في العباسية كنا نسكن في حي متوسط لكنه يقع بين منطقتين شعبيتين، الحسينية وكان لها فتوة، والوايلي وكان له فتوة، الأحياء الراقية طبقيا والتي كان من غير الممكن ظهور فتوة منها، كانت تتبع فتوة أقرب حي شعبي، يعني العباسية مثلا كانت تتبع عرابي فتوة الحسينية، ومصر الجديدة تقع في نطاق فتوة الوايلي، بدأنا نسمع عن عرابي الأساطير، في هذه الفترة رأيت اثنين من أعوانه، وكان من الممكن تأجير بعضهم لضرب شخص معين أو ما يشابه ذلك، وكنا نسمع عن مغامراتهم، ويبدو أثرهم أيام الانتخابات، طبعا أثرهم في الثورة سنة ١٩١٩ كان معروفا، قادوا المقاومة ضد الانجليز، وفي الانتخابات كان تأثيرهم عاثلا، عرابي هو الذي ضيع فرصة نجاح سليم بك والد كمال سليم المخرج السينمائي، مع أنه عرابي كان وفديا وسليم بك وفدي أيضاً، ولكن أسقطه لحساب وفدي آخر، وهو عبد الحميد البنان ابن الحسينية كانت له سراي في الحسينية نفسها، سليم بك رشحه الوفد، والبنان رشح نفسه على مبادىء الوفد، سليم شكا من حي الحسينية والجمالية لانحيازهما الى البنان، سمعنا أن سعد زغلول قرر أن يذهب بنفسه الى سرادق سليم بك لمساندته، جاء موكب سعد زغلول واخترق الحسينية، كان يوما لا مثيل له، عند رأس الحسينية كان عرابي وعصابته في انتظار موكب سعد زغلول، بمجرد ظهور الموكب علت صيحاتهم، يحيا سعد، يحيا سعد، ومبالغة في الاكرام، شالوا الاتوموبيل ودخلوا به سرادق البنان، الخبر مشى في العباسية زي النار، سعد زغلول في سرادق البنان.. سليم بك خسر تأمينه ولم تقم له قائمة..

الأوتوبيس

.. في العشرينات بدأت شركة الأوتوبيس في تسيير خط يمر بالحسينية،

ولكن سرعان ما حدثت متاعب، إذ أن صبية عرابي كانوا يتصدون للركاب والأوتوبيسات، كان من الممكن أن تكون جالسا في العربة وتفاجأ بأحدهم قد صفعك على قفاك، حارت الشركة، ماذا تفعل؟ أخيراً لجأت الى عرابي، وتم تعيين عدد من الصبية كمسارية في الشركة، أو عمالاً يرتدون الزي الأصفر ويمسكون الصفارات، ويقفون في الطريق لتأمين العربات والركاب.

أما نهاية الفتوات، فجاءت نتيجة لحادثة وقعت سنة ١٩٣٠، وسمعنا بها ونحن في مصيف اسكندرية، اذ حدث أن عرابي ضرب ضابطا انجليزيا، وجرده من ثيابه تماما، وذهب الضابط عارياً كما ولدته أمه الى الداخلية، وسرعان ما تم تجريد قوة قبضت على عرابي، وضربوه في الداخلية ضربا مفزعا، كسر الرجل وأنهى سطوته، وتحول عرابي من رجل كان يحمي مأمور قسم الظاهر الى رجل يمكن اعتقاله في أي لحظة لو شكاه أي انسان، مجرد شكوى صغيرة، ظل عرابي طول عمره تحت المراقبة، هل تذكر المقهى الذي كنا نلتقي فيه مساء كل خميس، كان اسمه مقهى أحمد عطية مع أن صاحبه في الأصل عرابي، لأن عرابي لم يكن يستطيع أن يضع اسمه على أي شيء، أحيانا كانت تعاوده المنجهية فيهب في الزبائن، وسرعان ما يمضي إليهم ويطلب الصفح، في أيام انكساره تلك رأيته، أنت لم تره، لأنك بدأت تزورني بعد وفاته، كان منظره جليلا، يشبه زعيم حزب، أوقائداً كبيراً، شخصية!، وكان شهماً جداً، وشخصيته جذابة، فارس.

.. وفي الأدب، كتبت عن الفتوة الواقعي قصة قصيرة واحدة، لم أضمها الى أي مجموعات قصصية، نشرت في الثلاثينات، استخدامي للفتوة بعد ذلك يشبه استخدامي للحارة، يعني في أولاد حارتنا كان الفتوات رمز القوة الغاشمة، في الحرافيش مثل الحكام، الظالمين، والصالحين استخدام رمزي، في قصة «الرجل الثاني» يشبه الفتوة القدر، في الحارة ستجد شخصيات تقليدية لها دلالة، مثل الفتوة، والمؤذن، وشيخ الحارة، كما عرفت الفتوات من الرجال، فقد عرفت فتوات من النساء، شفت فتواية، أنا أول من قدم إحداهن في الفيلم المصري، كانت بائعة فراخ في الحسينية، الفتواية التي شفتها كانت ذات قوة مهولة، بضربة

ذراع تطيح برجل جامد، أنا شفت نساء يتشاجرن، أذكر خناقة نسائية في محطة الرمل، ربطن الملاءة حول خصورهن، ودخلن ضرب البعض، وقف الميدان على رجل، لكن هذا ليس من علامات الفتواية، الأخرى امرأة يرتعش أمامها أي رجل، المرأة المعلمة تعتبر درجة أقل، الظروف ربما دفعتها الى السوق، ولكن الفتواية التي أذكرها كانت شيئا مهولا..

المقاهي..

.. المقهى يلعب دورا كبيرا في رواياتي، وقبل ذلك في حياتنا كلنا، لم يكن هناك نواد، المقهى هو محور الصداقة، البيوت لا تسمح بالزيطة، في البداية اتسع لنا الشارع، حتى تجرأنا على المقهى، عرفت المقهى في سن مبكرة، منذ أوائل الثانوي بفضل سيد الشماع صديقنا في الغورية، كان لنا مقهى في الدراسة، في كل حتة، لكن أشهر مقهى جلسنا فيه الفيشاوي ثم عرابي ومقهى زقاق المدق، والفردوس وركس، ولونا بارك، لونا بارك افتتحناها، أول ناس دخلوها أثناء الفتح، كان فيها شيشة معتبرة، كنا نشرب الشيشة، ونحتسي بعض كؤوس الويسكي، ونستمع الى أم كلثوم، آه.. ذكرتني بمقهى أحمد عبده الذي ذكرته في الثلاثية، وكان كمال يلتقي فيه بصديقه فؤاد الحمزاوي، هذا المقهى كنت أحبه، كان تحت الأرض، تنزل سلم، تجد دائرة، في الوسط فسقية، وتحيطها مقاصير صغيرة، ومشهورة بالشاي، أحسن شاي، الحقيقة أنا سميته قهوة أحمد عبده، لا أذكر اسمها الحقيقي، ألم يحدثك عنها أحد من أهالي الحسين؟ آه.. نسيها الناس اذن، هدمت منذ سنوات بعيدة، كان مقهى جميلا وكان أحب المقاهي إلى نفسي..

ملحوظة

.. أذكر في مقهى عرابي، أن لفت نظري في أحد الأيام رجل أبيض الشعر، أبيض الوجه، عيناه جاحظتان، جاحظتان الى الخارج، أصابعه نحيلة مدببة الأطراف، جاء، جلس، لاحظت أن الجرسون يناديه أهلا بحمزة باشا..

ثم جاء بشطرنج ونرجيلة موصى عليها، سألت عن الرجل، قيل لي إنه حمزة

البسيوني، مدير السجن الحربي الشهير بفظاعته.. التفت يومها الى نجيب محفوظ وقلت له: هل تعرف من يكون هذا الشخص؟ هز رأسه نفيا، قلت: إنه حمزة البسيوني..

ميلاد الكرنك

.. آه.. طبعا أذكر اللحظة، في هذه الجلسة ولدت رواية الكرنك، لم أر حمزة البسيوني الا في هذه المرة، ثم قتل في حادث بعد ذلك بأسبوعين، كان جلوسي بمقهى الفيشاوي يوحي لي بالتفكير، كل نفس شيشة كان يطلع بمنظر...، كان خيالي يصبح نشيطا جدا أثناء تدخين الشيشة، كان معظم وقتي أقضيه في الفيشاوي أيام العطلات، المقهى عالم من الأنس، ملتقى الأصحاب، أما ندوة مقهى الأوبرا، فبدأت عام ١٩٤٣، بدأت مع تكون لجنة التأليف والترجمة والنشر، كنا نجلس أولا بمقهى عرابي، لكن شلة الأدباء الجدد لم تنسجم مع شلة عرابي من أصدقاء العباسية، فانتقلنا الى كازينو الأوبرا، استمرينا فيه حتى طاردنا البوليس في بداية الستينات، أظن ١٩٦١، ١٩٦٢، التاريخ راح من ذهني، فيها عرفت عدداً كبيراً من الأدباء، جاء سلامة موسى، ولويس عوض، جاء وكان يعرض فكرة انشاء مجلة، كان يعتقد أن السحار بامكانه أن يمول مجلة، وجاء الينا شكري عياد، وبدر الديب، وفتحي غانم، معظم أدباء الجيل التالي لنا، في الآخر أصبح فيها عمل، كنا نقرأ فيها أعمالا أدبية وعندما قررت إنهاءها، الضابط قال لي أرجوك أبق على الندوة.. إنها مفيدة لنا، طبعاً كانوا يكتبون منها التقارير، المهم ان الندوة اكتشفت صدفة، في احدى المرات كان موكب لعبد الناصر يمر في الشارع، لاحظ رجال الأمن، أن عددا يصعدون الى المقهى، صعد أحدهم، أطل، فوجيء بعددنا، عاد وأجرى تحقيقا سريعا، أنتم من؟ لماذا تجلسون هنا؟، وقال: إن هذا إجتماع، وطلب منا أن نأخذ اذنا من البوليس كل أسبوع وبدأ أحد رجال البوليس يحضر الى الندوة، كان يتتبع المناقشات الأدبيـة بدهشة، ويصغي الى أسماء مثـل كافكـا، وبروست، ومصطلحات كالواقعية والمودرنيزم وخلافه، طلب مني أن أساعده في تلخيص ما يجري، يعني بالعربي أكتب أنا محضر الجلسة للبوليس.، لكن ذلك كان أمراً لا

يطاق.. وانتهت الندوة.. بعدها انتقلنا الى مقهى سفينكس أمام سينما راديو، كنا في البداية ثلاثة أصدقاء أو أربعة، ثم بدأ توافد الأدباء، في هذا المقهى تعرفت الى جيل الستينات، المقاهي بالنسبة لي ذكريات لا تنتهي، وكلها ذكريات غالية ترتبط بالأصحاب، والشباب، وأحلى أيام العمر..

الاسكندرية أخيراً..

الاسكندرية قطر الندى، نفثة السحابة البيضاء، مهبط الشعاع المغسول بماء السماء، وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع.

ميرامار

المكان..

.. اسكندرية.. وتوفيق الحكيم..

.. الاسكندرية هي المكان الوحيد الذي أسافر إليه بانتظام خارج القاهرة، بدأت علاقتي بالاسكندرية منذ انتقالنا الى العباسية، أول مرة ذهبت مع شقيقتي في الصيف، وفي مرحلة الدراسة الثانوية، اعتدت الذهاب إلى الاسكندرية في الإجازات الصيفية، كلما نجحت، يكافئني والدي فيعطيني عشرة جنيهات، وكان هذا المبلغ يكفيني لمدة شهر كامل بالاضافة إلى ركوبي الدرجة الثانية في القطار خلال الذهاب والاياب، كان عمي يقول لوالدي، أنت تفسده لأن نجيب عندما يتوظف لن يحصل على العشرة جنيهات، مما أذكره، إننا كنا نتناول الغداء، بالمناسبة كان زميلي في السفر صديقي ابراهيم فهمي من شلة العباسية، أصبح فيما بعد من الضباط الأحرار، ثم رئيسا لشركة، كنا نتغدى عند حيدو، في هذا الوقت لم يكن الكورنيش قد بني، وكان فيه بلاجين فقط، أما الشاطبي او الأنفوشي، كان حيدو عندما يجد مصيفين يترددون عليه يومياً، يعتبرهم زبائنه، كنا نطلب مثلا خضاراً وأرزاً أو سمكاً، ولأننا زبائن دائمون يقدم لنا طبقاً هدية من المحل، هل تعرف هذا عبارة عن ايه؟ عبارة عن سمكتي

بوري من الحجم الكبير، أذكر أنني دخلت مطعماً ألمانياً في الاسكندرية، مطعم فخم جداً، كان فسيحاً ومن طابقين، مكانه الآن معرض عمر أفندي في شارع صلاح سالم، وكان المطعم فيه جرسونات يرتدون أزياء مهيبة، جلست، فوجئت بأربعة، واحد وضع أمامي الطبق، الثاني وضع الفوطة، الثالث قدم إليّ قائمة الطعام، الرابع....، عندما وجدت هذا الاحتفاء، انتهزت فرصة ابتعادهم عني وانسحبت، خرجت بسرعة الى الشارع كانت الأكلة ستكلفني جنيهاً في وقت كنت أقضي فيه شهراً كاملاً بعشرة جنيهات، لهذا جريت.

بيترو..

.. لم أنقطع عن الاسكندرية أبداً منذ ذلك الحين إلا في أيام الحرب العالمية الثانية، لم يكن أحد يغامر بالذهاب، كان لنا فرع من عائلتنا في أحد أحياء الاسكندرية، قصف الحي بالقنابل، ومات كل أفراد العائلة أو بمعنى آخر، أبيد هذا الفرع منا، عدت إلى الاسكندرية في أول سنة بعد الحرب، وكان يصحبني عادل كامل ومحمد عفيفي، وكنت خلال سنوات الحرب أقضي وقت الإجازة بمقاهي القاهرة، تسألني عن بيترو، المقهى الجميل الذي كنت أرتاده في الاسكندرية، للأسف هدم الآن، أزيل في العام قبل الماضي، تعرفت بالاستاذ توفيق الحكيم سنة ١٩٤٧ بعد صدور زقاق المدق، الاستاذ محمد متولي الذي كان مديراً للأوبرا قال لي إن الاستاذ توفيق الحكيم يريد أن يلتقي بك، إنه يقعد في المقهى المواجه للبنك الأهلي، ربما كان هذا سنة ١٩٤٨، رحت قابلته، سألني.. أنت بتروح اسكندرية؟ قلت نعم، قال لي إنه يقعد بمقهى في سيدي بشر، في هذه الفترة كانت الحساسية في عيني قد اشتدت، كان أصحابي ينزلون البحر وأنا أبقى على الشاطىء، أثناء اتجاهي الى الاستاذ توفيق الحكيم شفت مقهى بيترو، كان المقهى الآخر مطلاً على الرصيف مباشرة، عرضة لازعاج المارة، قلت له، أنا شفت مقهى هادئاً ومعزولاً، تستطيع أن تخلو فيه إلى نفسك أنت وأصحابك، والمقهى قريب، منذ ذلك الحين بدأ جلوسنا بمقهى بيترو، أنا الذي اكتشفت بيترو، وبعد أن قامت الثورة ظهر الباشوات في المقهى وشفتهم في حالة الخوف

الشديد التي كانوا عليها، من الذكريات الطريفة أن أحدهم كان في حالة، فيه شخص دمه خفيف كان يتكلم عن فيلم بينما الباشا سارح بنظره في البحر، قال هذا الشخص «.. دا حتى من رأي سعادة الباشا..» الكلام عن الفيلم. لكن الباشا فزع فجأة وصاح، «أنا ماليش رأي ولا بتكلم في السياسة»، قال له «دا احنا بنتكلم في الفيلم» الباشا قال له «أنا عارف موضوعه ايه.. انا ماليش دعوة»..، كان هناك باشا آخر، المرجوشي طول عمره تاجر، قبل الثورة بشهور صفى تجارته، وقال إنه اكتفى بالتجارة، وأن أولاده تخرجوا من الجامعات وأنه يحب الريف، باع كل شيء واشترى عزبة خمسمائة فدان، قامت الثورة، أممت العزبة بعد تحديد الملكية، طبعاً أنت تعرف أن الثورة لم تمس التجار..، حظ.. لم يكن المرجوشي زراعياً ولا فلاحاً، طول عمره تاجر، لكنها مداعبة الحظ، بدأت علاقتي بتوفيق الحكيم من هنا، طبعاً هو حديثه ممتع جداً، وكثيراً ما أكون مستمعاً إليه..

الخارج..

.. فيما عدا الاسكندرية التي أسافر إليها بانتظام، لم أسافر الى الخارج إلا مرتين، مرة إلى يوغسلافيا، ومرة إلى اليمن، إنني أكره السفر بطبيعتي، ولكنني استمتعت بالرحلتين، وحتى الآن أحن الى المناظر التي رأيتها سواء في يوغسلافيا، أو اليمن، لم أكتئب هناك. بالعكس، استمتعت، علاقتي بالسفر غريبة، إذا قلت لي سافر، فكل شيء يضطرب، كأنك طربقت الدنيا فوق دماغي، ولكن إذا سافرت أستمتع حقيقة، لم أكن أضيق بالسفر في صدر شبابي، والدليل على ذلك أنني رشحت لبعثتين، بعثة لدراسة الفلسفة، وأخرى لدراسة اللغة، قل إن بعثة الفلسفة ربما غيرت حياتي، لكن بعثة اللغة كانت ستفيدني بلا شك، كنت سأدرس اللغة الفرنسية بعمق، وكنت سأرجع مدرساً بالجامعة بدلا من الوظيفة، وكنت سانتهز فرصة وجودي في باريس لادرس الأدب والفن، لم أكن كارهاً للسفر، ربما كانت كراهيتي للسفر الآن جاءت من عدم المرونة نتيجة

للنظام الذي أخذت به نفسي منذ تفرغت للأدب، السفر يكسر هذا النظام، كنت أتمنى أن أشوف هذه الدنيا، طبعاً أنت تعرف لماذا حرمت من البعثتين.. كان الفائز الأول والثالث قبطيين، وكان ترتيبي الثاني، ظنوا أنني قبطي أيضاً بسبب إسمي نجيب محفوظ، واستكثرت اللجنة سفر ثلاثة أقباط، وهكذا حرمت من رؤية الدنيا..، في الاسكندرية كنا نسهر مع الشلة، في الصباح يذهب أصدقائي إلى البحر، وأمشي أنا على الشاطيء، أبدأ رحلتي مشياً على الأقدام حتى الشاطبي، وفي اليوم التالي أبدأ من الشاطبي إلى الابراهيمية، وفي اليوم الثالث أمشي من الابراهيمية إلى كليوباترة.. وهكذا، واستمر هذا حتى تعرفت بتوفيق الحكيم..

ملحوظة:

معظم روايات نجيب محفوظ تدور أحداثها في القاهرة، لا يمتد المكان خارج القاهرة إلا فيما ندر، ولكن هناك مكان آخر يبدو قوياً، وبنفس درجة الحضور، إنه الاسكندرية، خاصة في «ميرامار» و«السمان والخريف»، وبعض القصص القصيرة، وهناك قصة قصيرة واحدة تجري أحداثها خارج مصر كتبها نجيب محفوظ بعد عودته من اليمن..

روض الفرج..
وأم كلثوم..

.. نعم، يظهر روض الفرج كمكان له ملامحه الخاصة في عدد كبير من أعمالي، أذكر أن والدي صحبني إليه، كان هناك عدد كبير من المسارح تعيد الموسم كله، يعني تجد مسرحاً يقلد الكسار، وآخر يقلد الريحاني، كله مقلدين، كل روايات الريحاني القديمة شفناها بواسطة ناس آخرين، طبعاً كان هناك مسارح راقصة، وفرق فنية، أما ام كلثوم فلم أسمعها في البداية هناك، سمعناها في اسطوانات سنة ١٩٢٦، تصور أنني تشاجرت مرة مع واحد لانه قال إن ام كلثوم أحسن من منيرة المهدية، كنت من عشاق منيرة المهدية.

ملحوظة:

كتب نجيب محفوظ في جريدة الأيام في ٢١ ديسمبر ١٩٤٣ مقالا عن أم كلثوم قال فيه:

«وما من جهود مثل أن تقارن أي صوت من الأصوات المصرية بهذا الصوت المتعالي فقل في غناء اسمهان وليلى مراد ونور الهدى ما تشاء إلا أن تقارنه بصوت أم كلثوم فتضره من حيث أردت أن تنفعه وتهينه من حيث أردت أن تكرمه وتمرغه في التراب وقد أردت أن تسمو به للسماء».

وبمناسبة أم كلثوم فإنني أميل إلى الموسيقى الشرقية، تربيت عليها، وكان لدينا فونغراف في بيتنا بالجمالية، حفظت وأنا صغير في بيت القاضي أغاني سيد درويش من الشوارع، لم يكن هناك راديو أو أسطوانات لكنني حفظتها بدون أن أعرف صاحبها حتى تقدم بي العمر وسمعتها في الاذاعة، كانت مفاجأة لي.. الله دا أنا كنت باغني الحاجات دي، درست الموسيقى الكلاسيك من الكتب. وكنت أحضر السهرات التي تقيمها الفرق الزائرة، أما عن حبي لآلة القانون، فلأنه أحب الآلات الى نفسي، كان التخت زمان محصوراً جداً، عواد، وكمنجاتي، ورقاق، وقانون، كنت أفضل هذه الآلة، ودخلت معهد الموسيقى، تعلمت لمدة سنة، كنت في الجامعة، وكان لا يوجد امتحان بين السنة الثالثة والرابعة، في هذه السنة دخلت المعهد، وكنت أدرس فلسفة الجمال، وظننت أن هذا المعهد يدرس الفلسفة الجمالية في الموسيقى، الفن التشكيلي عرفته من الكتب، لكن الموسيقى كيف أعرف الجانب الجمالي فيها، قلت سأجده هنا.. في المعهد.. وطبعاً لم أجده..

السينما.. أثمرت في سنوات اليأس الأدبي..

.. السينما دخلت حياتي من الخارج، لم أكن أعرف عنها شيئاً، نعم كنت أحب أن أشوف سينما، لكن كيف يعد هذا الفيلم؟ لا أدري.. كل ما أعرفه أن هذا الفيلم لرودلف فالنتينو، لماري بيكفورد.. الخ، لا أعرف أن هناك كاتب سيناريو أو غيره، في سنة ١٩٤٧، صديقي فؤاد نويرة قال لي: صلاح أبو سيف المخرج عاوز يقابلك، في هذه الفترة كانت لي عدة روايات آخرها زقاق المدق، رحت مع فؤاد، كنا في الصيف، قابلنا صلاح أبو سيف في شركة تلحمي السينمائية، قال لي الواقع أنا قرأت لك عبث الاقدار وتبينت منها أنك من الممكن أن تكون كاتب سيناريو كويس، قال لي: إنه لديه قصة عنترة وعبلة، قلت له: أنا ليس لدي أي فكرة عن الموضوع، قال: معلهش ستعرف السيناريو، فؤاد شجعني على قبول العرض، بدأ أبو سيف يطلب مني حاجة، حاجة، مثلا، يقول لي، موضوع عنترة وعبلة كذا أو كذا، اكتبه لنا في عشر صفحات، أكتب القصة، أذهب لتسليمها وأنا أظن أن مهمتي انتهت، يقرأها، يوافقون، وإذا به يقول لي، لا.. نحن لم نبدأ بعد. إن هذه هي فكرة الموضوع، نريد تحويله الى سيناريو، تخيل الفيلم، أي نقطة سنبدأ بها؟ وبدأ يشرح لي الموضوع، وأنا أطبق ذلك عملياً، بعد المعالجة، علمني تقسيم المناظر، وبعد أن قرأ نتيجة عملي أهدى لي كتباً في فن السينما، واشتريت انا بعض الكتب الأخرى. حقيقة، تعلمت السيناريو على يدي صلاح أبو سيف..، المهم أنه طلب مني أن أعمل معه باستمرار، لكنني اعتذرت لانني متفرغ للأدب، قال لي: إنه يعمل في الصيف فقط، وقال لي.. إذا كانت حساسية عينيك تعوقك، يمكنك أن تملي على كمال

عطية، بدأت أكتب سيناريوهات، أما أن أكتب القصة والسيناريو، أو أعد السيناريو لقصة، أودّ أن أقول لك أن السيناريو كتبته في الفترات التي كنت أتوقف خلالها عن الكتابة الأدبية، ولو أنه عطلني لحظة واحدة لتركته بدون تردد، كثيراً ما طلب مني مخرجون آخرون، أن أعمل معهم لكنني اعتذرت، صلاح أبو سيف كان مقلاً، كان يعمل فيلماً في السنة، كان مريحاً معي، لم أعمل باندماج إلا في سنوات اليأس الأدبي التي تلت كتابة الثلاثية، ذهبت وسجلت نفسي في النقابة، وأصبحت أعمل مع أي مخرج، توقفت عن كتابة السيناريو مرة أخرى عندما عينت مديراً للرقابة، وكنت متعاقداً على سبعة سيناريوهات، كان ذلك في ١٩٥٩، الحقيقة أنني لم أكن سعيداً بكتابة السيناريو، أنت كروائي رب عملك، ولكن هذا نوع من الخلق الجماعي، تقول يمين، تجد من يقول لك شمال أحسن بعض هذه الآراء تكون وجيهة فنياً، آخر يبدي آراء من وجهة نظر تجارية، واحد يبدي رأياً لأنه يحب الممثلة، لم أكن سعيداً بهذه العملية، ترك السيناريو بعد النجاح فيه تضحية لا مثيل لها، تضحية مادية طبعاً، مجموع ما انتجته حوالي ثلاثين فيلماً..

السينما والتركيز..

.. الغريب أنني كتبت هذا العدد كله من الأفلام وقصصي لم تجد من ينتجها، كنت أجد من يقول لي إنها صعبة، حتى أعد أحمد عباس صالح رواية «بداية ونهاية» لاذاعة صوت العرب، وعندئذ التفت إليها أهل السينما وقالوا هاتوا الرواية دي.. الله، طيب ما الرواية موجودة من الأول..، ثم انتجت كل الروايات ونجحت، أول فيلم اعد لي «بداية ونهاية»...، نعم أوافقك على ما تقوله، بالفعل المسلسلات التليفزيونية تمثل اليوم بالنسبة للأديب إغراء كبيراً، المسلسل يساوي ثروة، وكانت السيناريوهات في الخمسينات تمثل إغراء ضخماً، لكنني لم أكتب سيناريو إلا في الوقت الذي كنت غير مشغول فيه بالأدب، أو خلال فترة اليأس التي حدثتك عنها، كثيراً ما رفضت عروضاً مغرية، ولو أن ظروفي في العمل مع صلاح أبو سيف كانت ملائمة لي لما دخلت هذا المجال أبداً،

ومما لا شك فيه، بالقطع أنني لم أكتب أي شيء في حياتي وعيني على السينما، لم يحدث هذا إطلاقاً، الأدب أدب، والدليل ان الروايات التي تحولت إلى أفلام، تحولت بصعوبة ومعجزة، هل ممكن لمؤلف أن يكتب ثرثرة فوق النيل وعينه على السينما؟ لا بالقطع، لكن السينما تؤثر من ناحية أخرى، الايقاع السريع، التركيز، وهذا تأثير عام للسينما في الأدب، إنني أتساءل، لماذا اتجهت الى التركيز بعد الاسهاب، هناك جملة أسباب، على رأسها الزمن وإيقاعه، يعني لو أنا في عمر مناسب، لا يمكنني كتابة الثلاثية الآن مع هذا الايقاع، وتلك الظروف المحيطة بنا الآن، أضف إلى ذلك تأثير السينما والتليفزيون، وما يتميزان به من تركيز، وهذا يؤثر في أذواق الناس، وبالتالي فان القراءة تتأثر أيضاً. إن الجملة التي تغني عن صفحة هي الأفضل الآن، فضلا عن ذلك فإن أدبي كان طبيعياً. وأصبح الآن فكرياً، والفكر لا يحتاج إلى إسهاب، كل العوامل أدت الى التركيز، أفادتني السينما في التركيز، فيه ناس يقولون إن المونتاج أخذه الأدب من السينما، لكن هذا غير صحيح، إنه في الأدب قبل أن يكون في السينما، كذلك الرجوع الى الماضي، على أية حال فإن الفنون تؤثر في بعضها.

.. لا .. لم تمثل السينما اغراء مادياً في أي يوم من الأيام، سأقول لك ما هو أكثر، الاستاذ مصطفى أمين أهداني آخر كتاب له وقد صدره باهداء قال فيه «الى الكاتب الذي أردته أن يكتب يوماً في أخبار اليوم فرفض»، ولهذا الاهداء قصة، إذ كنت موظفاً في الأوقاف سنة ١٩٤٤، كان مرتبي ثمانية جنيهات، أرسل إليّ مع إحدى قريباتي التي كانت تعمل في أخبار اليوم، وطلب مني أن أكتب قصتين في الشهر مقابل خمسة عشر جنيهاً، كنت في أشد فترات حياتي، إرهاقاً من الناحية المادية، مرتبي ضئيل، مسؤول عن البيت بعد وفاة الوالدة، كان إغراء مادياً قوياً، خاصة وأنهم لم يطلبوا قصة قصيرة ذات مواصفات معينة، رفضت. لماذا؟ لأنني لم أكتب القصة القصيرة بدافع كتابة القصة القصيرة إلا في الستينات بعد «أولاد حارتنا»، وكنت في هذه الفترة مشغولاً بكتابة الرواية. الاستاذ مصطفى أمين لم يصدق أنني رفضت العرض

لرغبتي التفرغ الى الرواية ففسر الأمر على أنني وفدي، وأخبار اليوم كانت تهاجم النحاس وقتئذ.. لم أعرف بهذا التفسير إلا منذ شهر عن طريق صديقي محمد عفيفي..

ملحوظة:

الطريف أنني سألت مصطفى أمين في هذه الواقعة فذكر أنه قرأ لنجيب محفوظ عام ١٩٤٣، وأن رواياته لفتت نظره، فأرسل إليه مع قريبة له كانت تعمل بأخبار اليوم يطلب منه أن يكتب قصتين في الشهر، أن يكتب بالتبادل مع توفيق الحكيم، وكان الحكيم إسماً كبيراً في هذا الوقت، ويتقاضى أربعين جنيهاً في الأسبوع الواحد، وعندئذ اقترح مكافأة لنجيب محفوظ عشرين جنيهاً في القصة الواحدة، لأن اسم نجيب محفوظ لم يكن ذائع الصيت كتوفيق الحكيم، وهكذا يكون المبلغ الذي عرض على نجيب محفوظ أربعين جنيهاً، وليس خمسة عشر جنيهاً، أيها نسي؟

هل نسي نجيب محفوظ الرقم مع الزمن؟
ام ان الوسيط لم يبلغ الرقم الحقيقي إلى نجيب محفوظ؟

* * *

.. رفضت العرض لأنه كان سيعطلني عن الرواية، أما القصص القصيرة التي نشرتها قبل ذلك فقد كان معظمها قصصاً قصيرة عبارة عن ملخصات لروايات قديمة لم تنشر، أما القصة القصيرة فلم أكتبها نتيجة رغبة حقيقية إلا في الستينات.. لم أضح بأي شيء يعطلني عن الأدب، ولهذا فإن السينما لم تجرفني أبداً بعيداً عن الأدب، ولم أوقف كتابة عمل أدبي لأكتب سيناريو أو أي شيء آخر.. لم يكن هناك أي شيء يعطلني عن الأدب، عن الكتابة..

توقف

.. حدث ان توقفت مرتين في حياتي عن الكتابة، المرة الأولى سنة ١٩٥٢، بعد الثلاثية، كان لدي موضوعات لا ينقصها إلا الكتابة، وماتت الرغبة، المرة الثانية بعد الخامس من يونيو ١٩٦٧، رغبة وانفعال شديد، ولا موضوعات، لهذا كنت أبدأ من الصفر ولا أدري كيف سأنتهي..

لماذا هذا الموت في كلا الحالتين؟

كنت دائماً أقول تفسيراً لمن يسألني عن الفترة الأولى، كنت أقول ان الثورة حققت الأهداف، وأن المجتمع لم يعد فيه القضايا التي تستفزني، كان سبباً يبعد عني الشبهات، خاصة وأن السؤال حول أسباب التوقف له جانب سياسي، بدا لي أن إجابتي هذه سبب معقول، لكن هل هذا حقيقي؟ إنه مجرد تفسير الحقيقي إنني توقفت أربع أو خمس سنوات، ما هي الأسباب، لا يمكن أن أقول وأنا في راحة ضمير، ما هي الأسباب؟ لا أستطيع التفسير، مرة أخرى توقفت بعد أوكتوبر ١٩٧٣، لمدة سنة، ولكنني استأنفت العمل.. بعد فترة توقفي الأولى لم أكتب أي أدب، ولا حتى قصة قصيرة، وعندما استأنفت الكتابة بدأت في «أولاد حارتنا»، لكنني أعود فاتساءل عن سبب التوقف. ربما كانت الثلاثية هي السبب، إذ يمكن القول أنني أشبعت من خلالها رؤيتي، ولكنني لا أستطيع الجزم بذلك، خاصة وأنه كان لدي سبعة موضوعات، أذكر أنني عرضتها مرة على عبد الرحمن الشرقاوي عندما كنت أعمل موظفاً في مصلحة الفنون، وأعجبه موضوع كان عن العتبة الخضراء، لقد ظننت أنني انتهيت وقتئذ، وخاصة أن لكل كاتب عمراً فنياً، رامبو توقف وهو عنده اثنان وعشرون سنة، قلت أشوف شيئاً آخر، وكان السيناريو عزاء محدوداً، وشغل الوقت مع السينمائيين، لكن هذا كله لم يغرني عن الأدب، كنت في أسوأ حالات عمري، لدرجة أنني كنت أشتهي الموت!

أول قصص قصيرة أكتبها برغبة

«دنيا الله» تضم أول قصص قصيرة كتبتها في حياتي برغبة، رغبة في كتابة القصة القصيرة، كثير منها كان عن الموت، الحقيقة أنني لم أنتصر على فكرة الموت إلا بعد أن كتبت عنه، لا شيء يحركك من حاجة معينة مسيطرة عليك إلا الكتابة، أوافقك أيضاً على أن الانسان حين يفكر كثيراً في الموت فان هناك موضوعاً آخر يكون مسيطراً عليه، أو أزمة كبرى يمر بها..

النقد

.. أول من كتب عني سيد قطب، وأنور المداوي، كان هذا أول ما يكتب عني في عام ١٩٤٨ و١٩٤٩، منذ أن بدأت الكتابة عام ١٩٢٩، بعد ذلك تعرضت لهجوم منتظم في جريدة الجمهورية، الحقيقة لا أدري سببه، بعد ذلك تغيرت الآراء، أصبحت أديباً اشتراكياً، الأدب البورجوازي أصبح اشتراكياً، وبعد رواية الكرنك أصبح أدبي رجعياً، على أية حال، أنا لي رأي في النقد، كما يكون الأديب حراً، فان الناقد هو الآخر حر، الناقد يكتب طبقاً لوجهة نظره، والكتاب لا تتم دراسته إلا إذا انعكست فيه جميع الآراء، لكن هناك أساس هو النقد الفني، مثلا.. كأني أقول لك هذه الساعة من الذهب، تقول لي، إن لبسها حرام.. قد يصح هذا أو لكن قبل ذلك، عيارها كم؟ جاءت فترة غلبت عليها السياسة، والسياسيون محرومون من التعبير عن رأيهم السياسي، فالشيء الذي كان لا يقال مباشرة كان يقال عن طريق النقد، كذلك النقد الفني صعب، يحتاج الى دراسة، وذوق، وجهد، ولا يقدر عليه أي كاتب، لكنّ النقد ذا المضمون السياسي سهل.

.. كان انفعالي بأول مقالة كتبت عني كبيراً، جاءت بعد صمت طويل، أذكر أنها كانت لسيد قطب، طبعاً الصمت مؤلم لكن إذا حصرت نفسك في حب العمل فإن في ذلك عزاء كبيراً، يمكن القول ان النقد أفادني، لكنه يربك في البداية، على سبيل المثال كتبت زقاق المدق ببراءة تامة، جاء أحد النقاد وكتب أن حميدة تعني مصر، كنت في دهشة، أحياناً يفتح النقد أبعاداً كبيرة، لكن كل اهتمامي كان في البداية، اليوم قد أجد مقالة في مجلة أقرأها بسرعة، في البداية كان النقد ممكناً أن يفيد، لكن الآن هل تنتظر من النقد أن يغيرني، أعتقد أنك غداً ستجرب ما أقوله.

ما تبقى..

.. الآن، أصبحت أعمالي الأدبية مستقلة عني، لم أقرأ رواية مرة أخرى، ما هو إحساسي بالروايات الأولى؟ لا أدري، الطبعات الجديدة تصحح في المطبعة

ولا أعرف بصدورها، إلا آخر العام، لكن إذا فكرت في أعمالي الآن فسيقفز الى ذهني - كما قلت لك-الثلاثية، الحرافيش، أولاد حارتنا وحكايات حارتنا، نعم.. حكايات حارتنا، تقول ان السبب ارتباطها بالطفولة، ربما كان هذا صحيحاً، ولكن معظمها خلق بحت، فيها حاجات بدأت فيها كأنه واحد سبور في طياته ثم افلتت منه، اتفق معك، ربما كانت تمهيداً للحرافيش، «المرايا» بدأتها عدة بدايات، خطر لي أن أكتب عن الناس الذين مروا بحياتي ولم يلحوا عليّ فنياً، ثم جاءت فكرة أخرى، أن أكتب عن الناس الذين عرفتهم بشكل واقعي، كلا المشروعين لم يتما، إذا التزمت بالحقيقة وجدت أن المحصول محدود جداً، تحولت في الكتابة الى رواية، مع أنني بدأتها بنية الكتابة عن أشخاص محدودين بشكل واقعي، أحياناً يخيل إليك أنك تعرف كل شيء عن شخص معين، وإذا قررت الكتابة عنه تجد أنك لا تعرف عنه شيئاً، لكن عندما يتعلق الأمر بالخلق توجد شخصيات مختلفة.. وجديدة!

الوظيفة..

.. دخلت الوظيفة سنة ١٩٣٤ ، وحدث انقسام حاد في حياتي ، الوظيفة شيء ، والأدب شيء ، أحببت الوظيفة ، وكنت أنوي عند بلوغي السنة التي أستحق فيها معاشا كاملا أن أحيل نفسي الى التقاعد ، لكنني عندما وصلت الى هذا اليوم كانت المتطلبات المادية أكثر ، فبقيت في الوظيفة حتى بلوغي السن القانونية ، منذ سنة ١٩٥٥ وحتى سنة ١٩٦٥ ، كان الأدب ممكناً أن يفي بحاجاتي المادية ، ولكن بعد انتشار ظاهرة تزوير الكتب في الخارج أصبح ذلك مستحيلا ، رفضت دائما أن أتفرغ للعمل في الصحافة خوفاً من الضياع ، لأنه مجال مختلف عني ولم أعد نفسي له ، لم تكن الوظيفة مملة ، كنت أتعامل يوميا مع العديد من الناس ، ونماذج لا حصر لها ، من أخصب فترات الوظيفة المرحلة التي عملت خلالها في وزارة الأوقاف ، الأوقاف عدة وزارات في بعض ، صحة ، زراعة ، دين ، كنت ترى المستحقين ، ونوعيات مختلفة بدءا من حفيد السلطان عبد الحميد الى فلاح فقير له حصة في وقف ، كان فيها حاجات عجيبة ، عاصرت الوظيفة في أطوار مختلفة ، لم تكن هناك قوانين تحمي الموظف ، أول قانون عمله أمين عثمان في وزارة النحاس سنة ١٩٤٢ ، عدا ذلك لم يكن يتقدم في الحكومة الا أوباشها ، كان هناك من يبيعون أعراضهم ، كنا نعرف أن مدير مكتب أحد الوزراء أعد شقة خاصة للوزير ، أضف الى ذلك انتشار الشواذ ، يعني نموذج محجوب عبد الدايم ، ورضوان بن ياسين في الثلاثية كان منتشرا جدا ، كانت أيام شبيهة بأيام المماليك ، جهاز إداري فاسد ، لكن بالنسبة لمسألة الرشاوى كان الحال أفضل من الآن ، كان فيه انضباط وإدارة قوية ، في إدارة الجامعة مثلا كان فيه موظف واحد مرتشي ، وكان معروفاً ، طبعا مصادر الرشوة كانت اختصار الاجراءات ، نفس الاجراءات يمكن أن تستغرق شهراً او تستغرق يوما ، والسبب صياغة معينة في المذكرة ، مثل « أفيدونا عن الشيء الفلاني ».. الخ.. ، تعاقب الوزارات المختلفة كان يصبح له انعكاسا على الوزارات ، الكبار يذهبون ، عامة الموظفين متفرجون ، كان هناك ترحيب دائما بوزارات الوفد ،

لأنه جرت العادة على ان ينال صغار العاملين بعض الفائدة، عندما نقلت الى مكتبة الغوري كان ذلك بسبب تغيير وزاري، كنت على صلة بأحد الوزراء، لم تكن صلة عميقة، وعندما حدث تغيير طلبوا مني أن أختار مكاناً آخر، طلبت النقل الى قبة الغوري، ظنوا أنني أحتج، ولكنني قلت لهم إنني سأكون سعيدا جدا، طبعا أنت تعرف أن القبة تضم مكتبة ضخمة، في هذه الفترة قرأت مارسيل بروست، عملت أيضا فترة في مشروع القرض الحسن، فترة ممتعة، كانت النساء يجئن ليرهن الحلى والمصاغ، طوال النهار أتحدث وأرغي مع النساء القادمات من الحواري، والأحياء الشعبية.

استثناءات..

.. عندما التحقت بوزارة الأوقاف، كان يزاملني المرحوم كامل كيلاني، حذرني من إظهار أي نشاط أدبي، طلب مني أن أخفي هويتي كمؤلف، قال لي إنهم لو عرفوا سيضطهدونك، لأنني عانيت من ذلك معاناة شديدة، أخفيت الأمر، السبب أن بعض الوزراء كانوا يتولون الوزارة فيكرمون كامل الكيلاني، عندئذ تحدث ضجة في الوزارة، يقولون «ايه ده»، هو كل واحد كتب كلمتين إنشاء يأخذ علاوة أو ترقية، أمال فين المذكرات القانونية...» لم يعترفوا الا بهذا، لكن تأليف الكتب لم يكن له مجال، لهذا أرهقوا كامل الكيلاني، كان معي محمد مصطفى الماحي الشاعر، ومن قبلنا عمل العقاد في وزارة الأوقاف، استوحيت الكثير من الموظفين، وعدد كبير منهم دخل في رواية المرايا..

ملحوظة:

راجع الفصول الخاصة بـ «ثريا رأفت»، «شرارة النحال» «صبري جاد»، «صقر المنوفي» و«طنطاوي اسماعيل» «عباس فوزي»، «عدلي المؤذن»، «عبد الرحمن شعبان»، «عبده سليمان»، «فتحي أنيس»، «كاميليا زهران»، «وداد رشدي».

رواية «المرايا»...

الحب الأول.. والكبير...

«عايدة يا قضائي وقدري..» «ولو لم أعرف عايدة لكنت انسانا غير الانسان ولكان الكون غير الكون»

كمال عبد الجواد - قصر الشوق

.. خبا حبي الأول منذ زمن بعيد، لا أستطيع تتبع أخبارها الآن، لأنها ابنة عائلة اندثرت منذ مدة، قصرهم أصبح عمارة، كانت سراياهم في شارع بالعباسية اسمه حسن عيد يصل بين شارع العباسية، وشارع الملكة نازلي، أصبح مكان السراي الآن عمارتين حديثتين، لا أعرف مصيرها، أو أين هي الآن، في مصر، خارج مصر، حتى اخوتها انقطعت أخبارهم عني، فيه حاجات غريبة، أحيانا يقولون إن الدنيا تلف وتدور ثم تشوف، لكن هذه انقطعت أخبارها كلها عني بالمرة، الغريب أن البيت الصغير الذي أسكن فيه بالاسكندرية تعيش به قريبتها، في الطابق الذي يقع تحتي، ابن عمها دكتور قابلني تذكرني، لكن ليس من المعقول أن أسأله عنها، معقول أن تكون ماتت، معقول جداً، لو أنها تعيش فهي الآن فوق الثمانين، أظن انها تزوجت مهندساً، قيل هذا في الزمن البعيد، لا أذكر، بعد زواجها لم أرها إلا مرة واحدة في ميدان الاسماعيلية، واسمه الآن ميدان التحرير، تمكن مني هذا الحب في شبابي الى حد كبير، الغريب أنك تجد أحياناً وجهاً ما يخيل إليك انك على موعد معه، لماذا هذا الوجه بالذات؟ لا أدري، لماذا هذا التكوين بهذا الشكل بالذات يؤثر في الانسان هذا التأثير بالذات؟ أيضاً لا أدري، هذا شيء غامض لا تفسير له عندي..

ملحوظة:

نستعيد هنا فصل «صفاء الكاتب» من المرايا:

كان بيت الكاتب من أعرق البيوت في العباسية القديمة، وكان يقع في الحي الشرقي ببنائه الشامخ وحديقته المترامية ما بين محطتي ترام. وكثيراً ما سرنا بحذاء سوره ونحن في طريقنا الى الصحراء للعب الكرة فلم أر منه الا رؤوس الاشجار وخمائل الياسمين والستائر المسدلة. وذات يوم وكنت ماضيا نحو الصحراء رأيت حنطورا ينحدر من الطريق الشرقي نحو الشارع العمومي، في صدره جلست عجوز تلوح من وجهها . عينان ناعستان فوق حافة اليشمك، والى جانبها فتاة تتألق بنور الشباب. وبمجرد أن وقعت عيناي على وجه الفتاة عانقت سراً من أسرار الحياة المتفجرة، تفتحت بها أبواب السماء فأغدقت عليّ فيضا من بركات الحب. وقال شمراوي الفحام وكان أكثرنا خبرة بالحي الشرقي: — هي صفاء ابنة صاحب القصر.

وقال خليل زكي وكان يسطو على حدائق الحي الشرقي كلما وجد غفلة ليخطف عنقود عنب أو ثمرة من المانجو:

- وهي في العشرين من عمرها.

وعند ذاك همس جعفر خليل في أذني وقد لحظ تغيري:

- أما أنت ففي الخامسة عشرة!

ومن عجيب أن صورتها - رغم العاطفة التي ابتعثتها - اختفت تماما وراء سحب الماضي. بل تعذرت على الوضوح حتى وأنا فريسة لسحرها. لا أعرف لون شعرها ولا تسريحته ولا لون عينيها أو رسمها ولا طول قامتها أو درجة امتلائها. ذاب ذلك في سائل سحري، وكنت اذا تذكرته - او خيل إليّ ذلك - فمن طريق غير مباشر وباتجاه عفوي كشذا الورد الذي يباغتك من وراء سور وأنت ماض غارق في أفكارك. وكأن قلبي لم يكن يحركه شيء الا اذا انتمى اليها بسبب خفي. ولذلك همت في أزمنة متأخرة نسبيا بقسمات وملامح وسمات ولفتات لنجوم توهمت أنها تذكرني بما غاب عني منها، بل ما أحببت صفة في وجه إنساني الا وكانت هي وراءه حقيقة أم وهما. وبسبب ذلك الحب الخاطف عانت حياتي العاطفية من أزمات متواصلة معقدة كأنها السحر الأسود. والعجيب أنه كان حبا بلا مواقع ولا مواقف ولا تاريخ يذكر. رأيتها في الحنطور ثواني ليس إلا فنفدت إرادتي وألقي بي في طور جديد من أطوار الخلق. وكنت قريب عهد بحب حنان مصطفى فأدركت خطئي وآمنت بأنني أحب لأول مرة. وعرفت كيف يغيب الانسان وهو حاضر ويصحو وهو نائم، كيف يفنى في الوحدة وسط الزحام ويصادق الألم، وينفذ الى جذور النباتات

وموجات الضوء. وجعلت أحوم حول سراي الكاتب وهو قصر مغلق النوافذ مسدل الستائر لا يرى به أنسي سوى البواب والبستاني وبعض الخدم، وسمعت مرة صوتا ناعما ينادي البواب فاهتز قلبي وافترضت في الحال أنه صوتها ثم آمنت بذلك. ورأيتها للمرة الثانية في مناسبة حزينة جدا، في نافذة بيت أثري بشارع محمد علي احتشد فيه نفر من النساء لمشاهدة جنازة سعد زغلول، ولم أنتبه اليها عقب مرور النعش فرأيت من خلال دموعي وجهها المشرق وهي تجفف عينيها مادة عنقها وراء النعش المبارك. خفق قلبي خفقة مباغتة ولكنني لم أنعم بالرؤية وفقدت النشوة في قلب كسير محزون، واجتاحتني عواطف متناقضة كما اجتاحني تيار الخلق المتلاطم الباكي. لم أرها بعد ذلك الا ساعة هبطت أدراج السلاملك في ثوب العرس لتستقل سيارة الى بيت العريس وكنت ضمن حشد وقف على الطوار المواجه للقصر للفرجة. وكانت مدة ذلك التاريخ الذي مر بلا أحداث عاما إلا قليلا، ولكنه كان أعجب عام في حياتي.

وانكشف أمري لأصدقائي جميعا، أما المهرجون فسخروا مني واطلقوا عليّ «مجنون صفاء»، وأما الآخرون فحذروني من التمادي في عاطفة لا جدوى منها البتة. وكنا صغارا وكانت أفكارنا ساذجة مستعارة من الروايات وما عرفناه من تاريخ الأدب العربي، فقال لي سرور عبد الباقي:

- لا تستسلم وإلا جننت كمجنون ليلى..

وقال لي رضا حمادة:

- إن حبك هذا يقطع بأنك أحببتها في تاريخ سحيق مضى، ربما في عصر الفراعنة، كما يقول ريدر هجارد..

وتمثل ذلك الحب في صورة قوة طاغية متسلطة لا تقنع بأقل من التهام الروح والجسد. قذف بي في جحيم الألم، وصهرني، وخلق مني معدنا جديدا تواقا الى الوجود، ينجذب الى كل جميل وحقيقي فيه. وبقي الحب - بعد اختفاء خالقه - ما لا يقل عن عشرة أعوام مشتعلا كجنون لا علاج له، ثم استكن على مدى العمر في أعماقي كقوة خامدة - ربما حركتها نغمة أو منظر أو ذكرى فتدب فيها حياة هادئة مؤقتة تقطع بأنه لم يدركه الفناء بعد. وكلما تذكرت تلك الأيام أذهلني العجب، وتساءلت بدهشة عن سر الحياة التي عشتها، وهل كان أصابني مس من الجنون، وأسفت غاية الأسف انه لم يقدر لحبي أن يخوض تجربته الواقعية، وأن تتلاقى في دوامته العنيفة السماء والأرض، وأن أمتحن قدراتي الحقيقية في معاناته ومواجهة أسراره على ضوء الواقع بكل خشونته وقسوته. وما أحكم رضا حمادة حين قال لي يوما وقد بلغنا درجة من النضج والتجربة:

- صفاء الكيت في حياتك كمثير.. لم تكن الا «شفرة» تشير الى شيء، تعين عليك أن تحل رموزها للوصول اليه. قلت له:

- لقد تحللت حياتنا الى سخريات ولكني أكره أن أذكر تلك الأيام باستخفاف..
- استخفاف؟!. كيف يستخف إنسان بأروع سني العمر؟!

ومررت بقصر آل الكاتب في الستينات فوجدته قد هدم ورفعت انقاضه، مخلفاً أرضا فضاء تحفر تمهيدا لاقامة أربع عمارات سكنية. ابتسمت وأنا أنظر الى الأرض الفضاء، وعبرني إحساس بالأسى، فتذكرت صفاء التي لم أرها منذ هبوطها في ثوب العرس، التي لم أدر عنها شيئاً، حية كانت أم ميتة، سعيدة أم شقية، وكيف غيرها الكبر بعد بلوغ السنين؟. وأيا كان خبرها، ورأي الآخرين فيها، ألم يكن من حقها أ تعرف أنها عبدت في محراب كاله، وأنها فجرت في قلب حياة ما زالت تنبض بين الحين والحين بذكراها؟

.. كتبت الكثير من أعمالي تحت تأثير حالة حب، ليس من الضروري وأنا أعيش التجربة، لكن بعد مرورها، وأعتقد أن الأديب يبدع أفضل ما عنده وهو يحب، ولما كان حب المرأة غير متاح دائماً، فقد كان حب أي شيء محل حب المرأة، إن التعبير عن تجربة حب بعد الانتهاء منها يظهر كل أبعادها ويبرئها من التحيز، ويساعد على خلق عمل جديد.

.. نعم، عبرت في قصصي عن كثير من المنحرفات، البعض يستبشع هذا، لكن ما هو موجود في الواقع أفظع بكثير، أعتبر رواياتي حشمة بالنسبة للواقع، أعرف عن الواقع الاحصائي حقائق مخيفة، ما عرفته بالمشاهدة بسيط لأنه لا يؤدي الى الحقيقة بالضبط، في أحد الأيام تعرفت الى ضابط بوليس بمكتب حماية الآداب، كان شقيقه موزع أفلام، جاء إليّ في ريش، وبدأ يحكي عما يشاهده، أشياء فظيعة. الحياة الاجتماعية التحتية مرعبة، لماذا نتجاهلها، إن سبب معظم حالات الانحراف الحاجة، معظمهن انحرفن نتيجة ظروف ساحقة، إن حياة الانحراف كريهة، إن لم تكن المرأة مصابة بانحراف في عقلها فانها لا ترضى بهذه الحياة، إن الرجال مسؤولون في معظم الأحيان عن انحراف المرأة، إن المنحرفة في القاهرة الجديدة عندما تضعها بجانب المسؤول الكبير، الوزير، فان المسؤولية تقع على عاتق الوزير.

.. عرفت النساء في الاحياء الشعبية من المعايشة المباشرة، يكفي جلوسي أمام بيتنا في الجمالية، كن يجئن الى أمي، احداهن تبيع الفراخ، أخرى تكشف

البخت، دلالات، منهن نساء وأظبن على زيارتنا في العباسية، كنت أصغي اليهن في أحاديثهن مع الوالدة، وهن يروين لها الأخبار، وعرفت نماذج عديدة منهن في رواياتي فيما بعد.

.. بالنسبة لاشراك زوجتي في قراءة أعمالي، فان المبدأ أوسع من ذلك، يوجد كتاب تعودوا اشتراك الآخرين في عملية الابداع الفني بمعنى انه يعرض أعماله على زوجته أو شقيقه، أو صديقه، واذا وجد مثل هذا المبدأ، تصبح الزوجة لها الأولوية بالطبع، خاصة اذا كانت لها اهتمامات أدبية وهناك كاتب يعتبر عمله سراً حتى يرى النور، وأنا أنتمي الى هذا النوع، اذ أنه في رأيي لا يوجد اثنان يمكن أن يتفقا في الرأي حول عمل أدبي أو فني.

.. أرقب ابنتي ربما بدهشة، أم كلثوم كان لديها استعداد للفن التشكيلي، ظننت انها ستتجه الى دراسة الرسم، ولكن هذا لم يحدث، لماذا لم تتخصص في هوايتها الوحيدة، بدلا من ذلك التحقت في الجامعة الأمريكية، أم كلثوم تبدو عصرية المظهر، متدينة، قبل أن تنام تقرأ في القرآن، عرفت صدفة أنها تصلي، الى جانب ذلك تحب الغناء الافرنجي، مرة دفعت ابنتي سنتين من عمرها بعد حصولها على الثانوية العامة نتيجة تدخلي كنت أود أن تلتحق بكلية الآداب، قسم اللغة الانجليزية، وكانت تريد أن تدخل الجامعة الأمريكية، أصدرت على الآداب، لكنها لم تستطع الاستمرار بعد ان التحقت بها لمدة عام بالفعل، قدمت في الجامعة الأمريكية، وكانت شروط الالتحاق قد أصبحت أصعب، ثم اشترطوا عليها سنة لدراسة اللغة، ابنتي الصغرى فاطمة تدرس السكرتارية في الجامعة الامريكية أيضا، طبعا مزاجها يختلف عني، هما تحبان الموسيقى الغربية، أنا أحب الموسيقى الشرقية، الغريب أنها لمدة قريبة كانتا منطويتين، من المدرسة الى البيت، ودائما معنا، كان من المفروض ان يتشبعا بروحي، لكنهما نقيضي في كثير من الأشياء، أتساءل من أين جاءتها هذه المؤثرات على الرغم من انطوائيتها، وعدم الاختلاط بالخارج لمدة كبيرة، فيها نفس سمات الجيل، الذوق الغنائي، الاهتمام بالعالم، وليس بالواقع المحلي، ولكنني سرعان ما أتذكر، أنني

نشأت في بيت لا أحد يقرأ فيه، ومع ذلك قرأت وعشقت الأدب، هن أمامهن مكتبة ضخمة، واسطوانات لا حصر لها لأم كلثوم، لكن لا المكتبة تعينها، ولا أم كلثوم، حقا.. ولّى زماننا، وهذا زمان مختلف، زمان غيرنا!!

* * *

.. الزواج .. والأسرة..

.. الحقيقة أن المرأة في حياتي وأدبي شيء واحد، لعبت المرأة في حياتي دوراً كبيراً إن لم يكن مثل السياسة فهو يفوقها، أثر الوالدة في التربية، ونوع الثقافة التي منحتها لي على الرغم أنها لم تكن مثقفة، ثم تجربة الحب الأول الذي سيطر على حياتي الى درجة كبيرة، وبعد ذلك تجارب حب، يمكن أن تسميه، حباً طيارياً ، لكن كان له أثره الكبير في تعرفي الى عدد كبير من النساء والفتيات، نماذج عجيبة وغريبة، ظهرت فيا بعد في أعمالي كلها، ثم تجيء قصة زواجي الغريبة، إذ أنني تزوجت بدون أي تخطيط، وبعد فترة من الصراع، هل أتزوج أم لا أتزوج؟ تماماً كالأزمة التي مررت بها في الثلاثينات، الأدب أم الفلسفة؟ ثم حسمت الصراع بقراري، ألا أتزوج، وكانت أمي تلح علي في الزواج، رتبت لي مشاريع زواج عديدة، زيجات معقولة ولا بأس بها، وأرفض.. كيف تزوجت إذن؟ كنت أعرف صديقاً كما أعرفك، وفي أحد الأيام يعرفني بزوجته، وأخت زوجته، وأجد نفسي أتزوج شقيقة امرأته.. هكذا!، هكذا تم الزواج، على الرغم من تعقيدات عديدة في الأسرة، حتى أن خبر زواجي لم يعرف به إلا عدد قليل من الأسرة، أشفقت على الوالدة لأنها كانت تجهز لي ترتيباً مختلفاً، نفس أخي وأختي نصحاني بتكتم الخبر، وكانا على علم بزواجي، لقد أفضيت بزواجي الى أمي على درجات حتى لا أحدث لها صدمة، وهناك شيء على جانب كبير من الغرابة..

فترة اليأس

.. تزوجت في عام ١٩٥٤، خلال توقفي عن كتابة الرواية في فترة اليأس

الأدبي، تزوجت وأنا سيناريست أكتب للسينما، من الممكن أن يكون الفراغ الذي كنت أعانيه قد لعب دوراً كبيراً في دفعي الى الزواج، وإلا .. ما الذي كان يخيفني من الزواج قبل ذلك؟ إنه الأدب، وهذا تصور خاطىء، وتفاصيله مكتوبة في يومياتي التي كنت أدونها يوماً بيوم، ثم توقفت عن الاستمرار في كتابتها، وعندما أعود الى قراءتها الآن، أجد ما يدهشني، لم يكن تصوري صحيحاً، كنت أناقش نفسي في يومياتي، هل أتزوج أم لا؟ وكنت أقول ان الزواج سيحطم حياتي الأدبية، وأنتهي الى قرار برفض الزواج، فيما بعد، بعد أن استمدت حياتي الأدبية استأنفت الكتابة أعتقد أن حياتي الزوجية قد ساعدتني، وليس العكس.

الواجبات الاجتماعية

معروف أن الزواج يفرض نوعاً من الواجبات الاجتماعية، وهذا يؤدي الى تبديد الوقت، لكن زيجتي كان لها ظروف خاصة، كانت أسرة زوجتي محدودة، حتى شقيقتها وزوجها سافرا الى ليبيا، كان لها خال عجوز يعيش دائماً في البلدة، ولا يجيء الى مصر إلا نادراً، كان ذلك بخلاف مشاريع الزواج الأخرى المعدة لي، إذ أنها كانت تقع في بؤرة علاقات اجتماعية متشابكة، وكنت مضطراً في حالة ارتباطي بعلاقة منها الى تبديد وقتي في المجاملات والزيارات، أو أن أصبح مثيراً للاستنكار كأن يقال مثلا «هذا زوج لا يزور.. ولا يحب الزيارة» الى آخر هذه الأمثلة، وكنت عندما أزور شقيقي ابراهيم، أو أخي محمد، أشوف الى أي حد الحياة الزوجية حياة اجتماعية، لا تسأل عن أحدهما يوماً إلا وتجده في حفلة شاي هنا، أو عيد ميلاد هناك، ومثل هذه الأمثلة كانت تخيفني من الزواج.. بالطبع طرأ تغيير على حياتي بعد الزواج بالنسبة لنظام عملي، يوم الجمعة صباحاً خصصته بأكمله للعائلة، نخرج فيه الى الحدائق، في الإجازات الصيفية كنا نقضي معظم الوقت معاً، أما عن فترة الطفولة الأولى بالنسبة للأولاد فلم تكن معطلة بالنسبة لي، العبء الأكبر حملته عني زوجتي..، عرفت مع الوقت مزاجي، ونظام حياتي، وكانت متفهمة دائماً ومعاونة لي، يجوز لو زوجة أخرى كانت قرفتني، لكن هذا لم يحدث، إن التجربة بالنسبة لهذه الناحية

موفقة، كذلك من ناحية العلاقات الاجتماعية، حتى عندما كانت شقيقتها تجيء الى مصر، كنت أذهب اليها نادراً، ليس هذا فقط، ولكن عندما يجيء أشقائي لزيارتي لم أكن أجلس معهم معظم الوقت، كانوا يصافحونني، ويخرجون مع زوجاتهم ليجلسوا مع العائلة. اعتاد أشقائي ذلك، كانوا يعرفونني، أذكر أن أخي محمد الله يرحمه عندما كان يجيء الى زيارتنا، بعد الغداء، أجلس إليه قليلاً، لكنه يقول لي، قم الى شغلك، أنا أعرفك.. إنما جئت لأقعد مع الأولاد..، أعترف أنني لم أكن موفقاً في حياتي الاجتماعية، العلاقات والزيارات وما الى ذلك، لكنني كنت حريصاً ألا أبدّد وقتي أبداً..

البدائل

كيف كانت ستمضي حياتي لو ارتبطت باحدى الزيجات التي كانت تعد لها الوالدة؟ سؤال قد يبدو صعباً، ومما يساعدني على الاجابة أنني تتبعت بعض النماذج التي كان من الممكن أن أرتبط بها، تتبعت الأخبار بالطبع، كانت والدتي تركز على إحدى قريباتي، كانت ثرية، وكانت أمي تتصور أنها ستسعدني، أم قريبتنا رحبت بي لسبب غريب جداً، البنت عادية الشكل، ليست قبيحة، وليست جميلة جداً، لكنها تصورت أن من سيتزوج ابنتها سوف يسرق ثروتها، ثروة تقدر بربع مليون جنيه، تصور.. أيام الرخص، أبوها رجل جمع ثروته بمختلف الطرق، كان مشهوراً بخراب الذمة، مات وترك العائلة هكذا، البنت وشقيق مستشار، وأخ طيار، الأولاد على خلق عظيم، لكن الأب حرامي كبير، وطبعاً كان محترماً جداً في المجتمع، رأيته في بعض المآتم، اذ يدخل كل الناس تقف له، كان متزوجاً من إحدى قريباتي، اذا حوسب على عمله فالبصق عليه قلة، ولكن تجاه المال والثراء تضعف النفوس، لن أقول لك إنني رفضت البنت بسبب أبيها، أمها كانت سيدة على خلق، وحريصة عليّ جداً، لأن إحساسها، أنني الوحيد الذي لن يمد يده الى ثروة ابنتها، لن يسرقها، يعني كنت مجرد موظف صغير في وزارة الأوقاف، ولو أرادت أن تزوج ابنتها الى وزير لاستطاعت، لكنها كانت تريد زوجاً لا يطمع في أموال ابنتها، ووجدت فيّ ضالتها، زوجها ملأها بفكرة سيئة عن الرجال، وتحولت الفكرة الى خوف على

البنت، لم أتزوج الابنة، ومع الأيام تزوجت شاباً على خلق، أعرفه، ظل يتردد عليّ في نادي القصة، وكان دائم الشكوى، لأن مرتبه صغير، وأمها تريده هو أن يصرف، أنظر الى الخوف على الثروة، كان يقول لي.. يا فلان، يعني حالي يرضيك، مرتبي لا يكفي، وزوجتي لديها كل هذا المال. كلامه معقول، لكن عقدة الثراء فظيعة، وسطت أحد أقاربي ليتحدث الى الوالدة.

ليس من المعقول أن يكون لابنتك كل هذا المال، وتعيش مع زوجها في ضنك، حرام.. وابنتك ليست في مستوى مرتب قدره أربعون أو خمسون جنيهاً فقط..

أمي.. وأبي

.. أوافقك على أن أمينة فيها ملامح كثيرة من الأمهات المصريات، لكنها ليست أمينة الأم في الثلاثية، أمينة فيها من أمي القليل، والدتي برغم جيلها كانت منطلقة، يعني، من تتصور أنها قادرة على الخروج من منطقة الحسين لتزور الأهرام، والمتحف المصري، وقسم المومياءات، حتى الآن لا أعرف كيف ولم أكن في سن يسمح لي بتوجيه أسئلة الاستفسار، كنت أمشي في يدها.. وخلاص، كانت والدتي رحمها الله عصبية الى حد ما، والدي كان «دقة قديمة» لكن لطيف ومحبوب، معظم أيامه في البيت، لا يسهر في الخارج إلا مرة كل أسبوع، سواء في أيام وظيفته، أو عندما أصبح تاجراً، نعم.. كان والدي موظفاً، وعندما وصل الى مدة الخدمة التي يستحق عنها معاشاً كاملاً، أحال نفسه الى التقاعد، له أحد الأصدقاء، صاحب متجر كبير، وفابريكة، كان يذهب دائماً الى بور سعيد، قال له، لماذا لا تأتي وتعمل معي، إنني في حاجة الى من أثق به. وهكذا تجمع بين المعاش والمرتب، وأطمئن أنا الى تجارتي في يد صاحبي وأعرف أن أسافر وأتفرغ لشغلي، والدي ضربها في دماغه، كان موظف حسابات، والعمل عند صاحبه أقل تعقيداً.. قبل... لم يكن هناك شبه بين أمي وأمينة في الثلاثية، كذلك بين أحمد عبد الجواد ووالدي.. رحمهم الله أجمعين!!

* *

الفهرس

دار المسيرة
للصحافة والطباعة والنشر
بيروت لبنان